محمد ياسين الحموي

تاريخ
الأسطول العربي

صفحة مجيدة من تاريخ العرب

الناشر
فؤاد هاشم الكتبي بدمشق

١٣٦٤ه‍ - ١٩٤٥م

al-Ḥamawi, Muḥammad Yāsīn.
"
/Tārīkh al-Uṣṭūl al-Arabī/

محمد ياسين الحموي

تاريخ الأسطول العربي

صفحة مجيدة من صفحات تاريخ العرب

N.Y.U. LIBRARIES

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

مطبعة الترقي بدمشق

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

الحقوق محفوظة للمؤلف

Near East

D
199
.3
.H35
c-1

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ

مقدمة المؤلف

إن من يدرس تاريخ العرب، ويمعن النظر فيما خلفوه من تراث علمي ذاخر، تستوقفه فيه نواح مجيدة، من نواحي حضارتهم ومدنيتهم التي فاقوا بها معاصريهم من أمم الأرض، مما يثير الإعجاب ويبعث على الاكبار والاجلال.

ذلك أنهم نشأوا فوق أديم الصحراء، فاتخذوا من رماله وطاءً، ومن سمائه غطاءً، وألفوا من العيش أخشنه ومن الحياة أقساها، ثم ما لبثوا أن انساحوا في البر، واندفعوا خلف دول عريقة في الحضارة والمدنية فتبوؤوا عروشها، واقتعدوا مقعدها. ولم يثنهم هول البحر عن تأدية رسالتهم فيه، فاتخذوا من الأمم التي خضعت لسلطانهم نواتي وملاحين وربابنة ومعلمين. وأكثروا من بناء الجوار المنشآت، ووسقوها بالعتاد والمقاتلة إلى أمم مما وراء البحار، حملوا اليهم العدل، والأمن، والحرية، والنور، والرخاء، وغدوا ملوك البر وحماة البحر أحقاباً طوالاً.

ولم يكتفوا بأن حذقوا سلوك البحار، وفنون الغزو فيها، والاتجار على شواطئها وموانيها، بل ساحوا السياحات البعيدة، واكتشفوا

البلاد المجهولة ، وشاهدوا عجائب برها وغرائب بحرها ، واستولوا على كنوز جزرها . فعادت عليهم بالرفاهية والثراء .

وظهر منهم المعلمون المهرة ، والملاحون الحاذقون من أهل سيراف ، والبحرين ، وعُمان أمثال أبي الحسن محمد بن احمد بن عمر السيرافي ، وأبي الزهر البرختي الناخذاة ، والحسن بن عمر ، واسماعيل بن ابراهيم ابن حرواس الناخذاة الذي كان من بقية نواخذة بلاد الذهب وعرف باسماعيلويه ، وعبهرة الربان الكرماني ، ومحمد بن بابشاد ، وعمران الاعرج الربان الشهير ، وغيرهم ممن سافروا الأسفار الطويلة في بحر فارس والهند ، والصين والقلزم في أواخر القرن الثالث ، وأوائل القرن الرابع الهجري . وأمثال أحمد بن ماجد ، وسليمان المهري من رجال القرن العاشر الهجري .

ونبغ منهم أناس ألفوا في علم الملاحة وفنون البحر : كأبي معشر المنجم الذي ألف كتاباً سماه المترجم بالمدخل الكبير إلى علوم البحر نقل عنه المسعودي . و كذلك الف محمد بن شادان ، وسهل بن أبان ، وليث بن كهلان (كتاب الرهماني) في علوم البحر . وألف في هذا العلم أيضاً احمد بن تبرويه ، والمعلم خواشير بن يوسف ابن صلاح الأركي من رجال القرن الرابع للهجرة ، ويعد أحمد ابن ماجد من عمان ، وسليمان المهري من الشحر أشهر من ألف

بعلم الملاحة . ولا تزال آثارهما باقية إلى زماننا .

إلا أن هذا التراث الذي حفظته لنا المكتبات في قماطرها ، وسلم من عوادي الأيام ، لا يزال يعوزه التنسيق ، وينقصه التهذيب ، والتبويب ، ليكون أقرب منالاً ، وأسهل مداولة واستقراءً ، وقد شعرت بهذا وأنا أدرس تاريخ الاسطول العربي لأحي به ناحية مجيدة من ثقافتنا العربية .

وإن من دواعي الغبطة ان صادف اخراج هذا السفر في وقت هبت فيه ريح العرب من جديد ، واجتمعت كلمتهم تحت راية ملوكهم ، وامرائهم ، ورؤسائهم للعمل على بعث الأمة العربية ، واسترداد عزتها القومية ، لتعيد مجدها وتتبوأ مقعدها بين الدول العظمى .

دمشق سنة ١٣٦٤ / ١٩٤٥

الأسطول العربي

الملاحة عند العرب قبل الاسلام :

تعتبر جزيرة العرب من الأقطار البحرية ، لأنها تشرف بثلاث جهاتها على بحار ثلاثة : البحر الشامي [1] في الشمال ، وبحر القُلْزُم [2] في الغرب ، والبحر الهندي وما يتفرع منه من الخلجان والبحار [3] الصغيرة في الجنوب . والعرب — بحكم موقع بلادهم — كانوا على اتصال دائم بالروم ، والحبشة ، والفرس ، والهند ، وما وراء ذلك من الأمم [4] ، التي تسكن سيف تلك البحار وحقافها ، يتاجرون معهم ، وينقلون اليهم حاصلات بلادهم وموارد ثروتها . وعرف قديماً عرب حمير وسبأ من دول الجنوب [5] بأنهم أهل تجارة في البر والبحر ، يعانون السفن بالانشاء والركوب ، وأنهم كانوا ينقلون حاصلات

---

(١) يسمى البحر الرومي ، والبحر الشامي نسبة الى أهل عدوته .

(٢) قال ياقوت : القلزمة ابتلاع الشيء ، يقال تقلزمه إذا ابتلعه ، وسمي بحر القلزم قُلزُماً لالتهامه من ركبه ، وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله .

(٣) كخليج عدن ، وخليج البصرة ، وبحر عمان .

(٤) كالصين ، وجاوا ، وصوماطرا .

(٥) أشهر الأمم العربية في جنوب جزيرة العرب : المعينيون ، السبئيون ، الحميريون الحضرميون ، الجبائيون ، القريون ، القتابيون ، العانيون . الظفاريون .

الهند ومصنوعاتها مما يحتاج اليه المصريون ، والآشوريون ، والفينيقيون وغيرهم من عرب الشمال ، في سفن البحر أو قوافل البر [١] ؛ فأسسوا لذلك فرضاً على شواطئ اليمن ، ترسو عندها السفن التجارية القادمة من بلاد الهند .

وعلى توالي الأيام والسنين مهر العرب بعلم الملاحة ، وثقافة البحر ، وانشاء السفن ، ووضعوا لها أسماء بحسب أشكالها ، وحجومها ، وأسماء لكل جزء من أجزائها ؛ وفي شعرهم ما يستدل على ذلك كقول طرفة بن العبد البكري :

كأنَّ حُدوجَ المالكيّةِ غُدوةً خلايا سفينٍ بالنواصفِ من دَدِ [٢]

عدَوْليةٌ أو من سفين ابن يامنٍ يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدي [٣]

---

(١) كانت السلع والاطياب تأتي من الهند ، والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب ، فينقلها العرب على قوافلهم إلى مصر ، والشام ، والعراق حتى أصبحوا في القرون الاولى قبل الميلاد وسائل اتصال بين الجنوب والشمال .

(٢) الحدوج : جمع حِدْج وهو مركب من مراكب النساء ؛ والمالكية : منسوبة الى بني مالك قبيلة من كلب ؛ والخلايا : جمع خلية وهي السفينة العظيمة ؛ والسفين : جمع سفينة ثم يجمع السفين على السفن ؛ النواصف : جمع ناصفة وهي أماكن تتسع من نواحي الأودية مثال السكك وغيرها ؛ دد : قيل اسم واد في هذا البيت ، وقيل دد مثل يد : اللهو واللعب .

(٣) عدَوْلى : قبيلة من أهل البحرين ؛ وابن يامن : رجل من أهلها .

يشُقُّ حبابَ الماء حيزومُها بها كما قسم الترب المغايلُ باليدِ [١]

الاسلام والاسلام :

على إن ثقافة العرب البحرية قبل الاسلام ، كانت ثقافة ابتدائية ترقى برقي الدول المتحضرة منهم ، وتنحط بانحطاطها؛ فلما جاء الاسلام وهو دين اجتماعي ، اقتصادي ، عمراني أورد للعرب من الآيات ما يرشدهم إلى فوائد ركوب البحر ومنافعه ، كقوله تعالى : (ربُّكُم الذي يزجي لكم الفُلْكَ في البحرِ لتبتغوا مِنْ فضلِهِ إنَّهُ كانَ بكُمْ رحيماً [٢]) وقوله : (وهُوَ الذي سخَّرَ البحرَ لتأكُلوا لحماً طرياً وتستخرجوا منهُ حلْيَةً تلبسونها ، وترى الفُلْكَ مواخرَ فيهِ بأمرِهِ لتبتغوا مِنْ فضلِهِ ولعلَّكُمْ تشكرونَ [٣]) وقوله : (اللهُ الذي سخَّرَ لكُمُ البحرَ لتجريَ الفُلْكُ فيهِ بأمرِهِ ولتبتغوا مِن فضلِهِ ولعلَّكُمْ تشكرونَ [٤]) إلى غير ذلك من الآيات .

وكان عرب الحجاز لا يجسرون على ركوب البحر ومعاناة

---

(١) حباب الماء : أمواجه والواحدة حبابه ؛ حيزوم السفينة : صدرها والجمع حيازيم ؛ الغيال : ضرب من اللعب وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم نصفين ويسأل عن الدفين في أيهما هو ؟ فمن أصاب قمر ومن أخطأ قمر ؛ شبه الشاعر شق السفن الماء بشق المغايل التراب المجموع بيده .

(٢) سورة الاسراء الآية ٦٦

(٣) سورة النحل الآية ١٤

(٤) سورة الجاثية الآية ١٢

سيره ؛ وفي حياة الرسول ﷺ اضطر جماعة من أصحابه إلى الهجرة ، فراراً بدينهم ، فركبوا البحر الى بلاد الحبشة ، وعرفوا بأصحاب السفينة [١] .

عمر بن الخطاب يحذر من ركوب البحر :

ولما اتسعت الفتوح في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطارت شهرة سعد بن أبي وقاص بعد القادسية ، أراد العلاء بن الحضرمي — وكان عاملاً لعمر على البحرين — أن تكون له من الشهرة ما لسعد في بلاد فارس ؛ فعمل أسطولاً وحمل فيه أهل البحرين ، ولم يستأذن به الخليفة ، لأن عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً ؛ وعبر به الخليج إلى إصطخر [٢] ، فنزل الجند بها وقاتلوا أهل فارس [٣] ، إلا أن العدو أخذ عليهم الطريق من جهة البحر ودمر أسطولهم ، فامتنعوا في مواطنهم ؛ بلغ ذلك الخليفة عمر فشق عليه جرأة ابن الحضرمي وقاصصه بأن جعله تحت إمرة سعد بن أبي وقاص .

ومما يدل على مبلغ تخوف عمر بن الخطاب من البحر وحرصه على

---

(١) هم جعفر بن أبي طالب وزوجته اسماء بنت عميس ، وفريق من أهل مكة ، وأبو موسى الأشعري وأخواه ، وفريق من قومه من اليمن .

(٢) إصطخر : بالكسر وسكون الخاء المعجمة ، والنسبة اليها إصطخري وإصطخرزي بزيادة الزاي ، بلدة بفارس (ياقوت)

(٣) وذلك في سنة ١٧ للهجرة .

أن لا يفصل بينه وبين المسلمين ماء : أن عمرو بن العاص لما فتح مصر أحب أن يجعل مدينة الاسكندرية حاضرة القطر ، وكتب برأيه هذا الى أمير المؤمنين عمر فسأل عمر رسول عمرو : (هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟) قال : (نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل) فكتب الى عمرو : (إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماءً متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم إليكم قدمت) .

ولج معاوية بن أبي سفيان على عمر بن الخطاب في غزو البحر ، وقرب الروم من حمص ، وقال : (إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها بنباح كلابهم وصياح دجاجهم !) فكتب عمر الى عمرو بن العاص : صف لي البحر وراكبه ، فكتب إليه عمرو بن العاص : (إني رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن رقد خرق القلوب ، وإن تحوك أزاغ العقول ، يزاد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق) فلما قرأه كتب إلى معاوية : (والذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ؛ وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن من الله في كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض ، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر ؟ وبالله

لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم ؛ وإياك أن تعرض إليّ ، فقد علمت مالقي العلاء مني !) .

الخليفة عثمان يأذن بركوب البحر :

أما الخليفة عثمان رضي الله عنه فلم يكن أقل حذراً من سلفه عمر في ركوب البحر ، وكان معاوية كتب إليه يستأذنه في غزوة قبرس ، ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها ، فكتب إليه أن : (قد شهدت ما رد عليك عمر — رحمه الله - حين استأمرته في غزو البحر) . فلما دخلت سنة سبع وعشرين ، كتب إليه مرة ثانية يهوّن عليه ركوب البحر الى قبرس ، فأجابه إلى طلبه وقال له : (فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا ؛ ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه) ففعل ، وحمل معه امرأته فاختة بنت قَرَظَة [1] ، وجماعة من الصحابة فيهم : عُبادة بن الصامت ومعه زوجته ام حرام ، وابو الدرداء ، وشداد بن أوس بن ثابت [2] ، وأبو ايوب خالد الأنصاري ، وابو ذر الغِفاري ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، وواثلة بن الأسْقَع الكناني ، وعبد الله

---

(١) تزوج معاوية : فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، وتزوج بأختها منفردة عنها بعدها وهي كنوة بنت قرظة ، ويقال هذه التي كانت معه حين افتتح قبرس . وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ، وميسون بنت بحدل وهي ام يزيد ، وكانت حازمة عظيمة الشأن جمالاً ورياسة ، وعقلاً وديناً

(٢) هو ابن اخي حسان بن ثابت الانصاري شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ابن بِشر المازني ، والمقداد ، و كعب الحَبْر بن ماتع ، وجبير بن نُفَيْر الحضرمي . و كان ذلك سنة ثمان وعشرين بعد انقضاء فصل الشتاء ويقال سنة تسع وعشرين [١] .

أقلع الأسطول من مرسى عكا بمراكب كثيرة وجهته قبرس ، وسار إليها من مصر اسطول آخر عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاجتمعوا عليها ، فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار ، كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها ، لا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم ، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم على الروم إليهم ، ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم [٢] فكان معاوية أول مسلم غزا في البحر .

ثم تشجع المسلمون على ركوب البحر ، وأخذت قوتهم البحرية تزداد بما انشأه معاوية من السفن والمراكب على ساحل بلاد الشام ، ورتب الغزو في البحر صيفاً وشتاءً ، وجعل على الأسطول عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة ؛ وغزا هو بنفسه في مضيق القسطنطينية سنة اثنتين وثلاثين ومعه زوجته نائلة وقيل فاختة .

و كذلك بلغ اسطول عبد الله بن سعد بن ابي سرح في مصر حداً من القوة والكثرة ، ما جعله يتفوق على الروم . ففي سنة ٣١ هـ

---

(١) البلاذري وابن الاثير .

(٢) ابن الأثير في حوادث سنة ٢٩

وقيل ٣٤ هجرية ، جهز قسطنطين بن هرقل اسطولاً في خمسمائة مركب ، وقصد إفريقية ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فخرج بأسطوله ، وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ، وتلاقيا مع قسطنطين في البحر ، فقرّب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض ، واقتتلوا بالسيوف والخناجر ، وقتل من المسلمين خلق كثير ، وقتل من الروم ما لا يحصى ، وصبروا يومئذٍ صبراً لم يصبروا في موطن قطّ مثله ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، فانهزم قسطنطين جريحاً ، ولم ينجُ من الروم إلا الشريد[1] وسميت هذه الغزوة ذات السواري لكثرة سواري المراكب واجتماعها .

الاعراب يحذرون من ركوب البحر :

أما العرب من أهل البادية فقد عرفوا بعدم جرأتهم على ركوب البحر ومعاناتهم له . رُوي أن الوليد[2] بن يزيد استعمل الأسود بن بلال المحاربي على بحر الشام ، فقدم عليه أعرابي من قومه ، ففرض له وأغزاه البحر ، فلما أصابت البدويَّ تلك الأهوال قال :

أقول وقد لاح السفين ملججاً ... وقد بعُدَتْ بعد التقرّب صورُ
وقد عصفت ريحٌ ولجوج قاصف ... وللبحر من تحت السفين هدير
ألا ليت أجري والعطاء صفا لهم ... وحظي حظوظ في الزمان وكور

(١) ابن الأثير .

(٢) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، الحادي عشر من خلفاء بني أمية قتل سنة ١٢٦ هـ

فلله رأيي قادني لسفينة ... وأخضر موّار السرار يمور
ترى متنه سهلاً إذا الريح أقلعت ... وإن عصفت، فالسهل منه وُعور
فيا ابن بلال للضلال دعوتني ... وما كان مثلي في الضلال يسير
لئن وقعتْ رجلايَ في الأرض مرةً ... وحان لأصحاب السفين وُكور
وسُلمت من موج كأنّ متونه ... حِراءٌ بدتْ أركانه وثبير[1]
ليعترضنّ اسمي لدى العرض حلفةٌ ... وذلك إن كان الإياب يسير
وقد كان في حول الشّرَبّة مقعد ... لذيذ وعيش بالحديث غرير[2]

تعليل ابن خلدون :

ويعلل ابن خلدون امتناع العرب وإحجامهم في صدر الإسلام عن ممارسة البحر ومعاناته فيقول : والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرةً في ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرَنوا عليه ، وأحكموا الدربة بثقافته ؛ فلما استقرّ الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرّب كلُّ ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النوتية في

---

(٣) جاء في معجم البلدان أن من جبال مكة ثبير وهو جبل شامخ يقابل حراء

(٤) وجاء في معجم البلدان ، قال الاديبي : الشربة موضع بين السليلة والربذة وقيل إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقعت في الشربة ، ولها ذكر كثير في أيام العرب وأشعارهم ...

حاجاتهم البحرية أُمماً ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراءَ به ، فشرِهوا إلى الجهاد فيه ، وأنشؤوا السفن فيه والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال ، والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراءَ البحر من أُمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته ؛ مثل الشام ، وإفريقية ، والمغرب ، والأندلس .)

دور الصناعة

كانت السفن في أيام معاوية تبنى في الثغور الشامية: كصور، وعكا، وطرابلس على أيدي نوتية من الروم حذقوا هذه الصناعة ومهروا فيها. وفي خلافة عبد الملك بن مروان بعث إلى عامله على إفريقية حسان بن ثابت يأمره باتخاذ صناعة بتونس[1] لإنشاء الآلات البحرية، فكانت أول دار صناعة بنيت في الاسلام.

من ذلك ترى أن لفظ (دار الصناعة) أول من استعمله العرب، ثم لما اتصل الفرنج بالعرب، عن طريق الأندلس في الغرب والحروب الصليبية في الشرق، وتأثروا بمدنيتهم اقتبسوا عنهم فيما اقتبسوه من الألفاظ هذا اللفظ، فقال الاسبان (Darcinah) ثم تناقلته سائر اللغات الاوروبية بالنحت والتحريف، حتى ظهر الأتراك في آسيا واوروبا وتغلبوا على البلاد العربية؛ استردها العرب وظنوها تركية فقالوا (ترسانه) أو (ترسخانه) ولو قالوا دار الصناعة، لأحيوا ما اندثر

---

(١) قال ياقوت: وذكر آخرون من أهل السير، أن التي افتتحها حسان ابن النعمان قرطاجنة، ولم تكن تونس يومئذ مذكورة، إنما عمرت بحجارة قرطاجنة وبأنقاضها، وبينهما نحو اربعة أميال؛ وفي سنة ١١٤ بنى عبيد الله بن الحجاب مولى بني سلول والي إفريقية من قبل هشام بن عبد الملك جامع مدينة تونس ودار الصناعة بها ... وبتونس قبر المؤدب محرز يقسم به أهل المراكب إذا جاش عليهم البحر يحملون من تراب قبره معهم وينذرون له.

من لغتهم ؛ ومهما يكن من شيء فان دار الصناعة هو المكان الذي أعد لإنشاء المراكب البحرية .

صناعة الروضة :

أول صناعة أنشئت في مصر سنة اربع وخمسين للهجرة في جزيرة الروضة تعرف باسم (صناعة الجزيرة) ثم اعتنى الأمير ابو العباس احمد بن طولون [١] في توسيعها وانشاء المراكب الحربية فيها ، ولم تزل الى أيام الملك الأمير أبي بكر محمد بن طغج الأخشيد سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ فأنشأ دار صناعة بساحل فسطاط مصر [٢]

---

(١) قال ابن أياس : حدث ابو كامل شجاع بن اسلم الحاجب قال : لما أطلقني أحمد بن طولون ألزمني دار الصناعة فدعاني يوماً فقال لي : كل ما تعمل لي من العدة يكتفى فيه بالقليل، مع تقدم هيبتي في صدور الناس، إلا المراكب فان البحر لا يهابني ولا يخاف سورتي وليس يعمل في البحر الا الوثاقة ، والجودة في الصنعة ، وتقديم الاحسان ، فقدّم الحزم في الاحتياط ، والاستزادة في الانفاق على المراكب ،لتسلم بعون الله عز وجل وتوفيقه من معرّة البحر .

(٢) قال المقريزي في خططه : ابتنى الملك الصالح أيوب قلعة جزيرة الروضة لتكون مركزاً لمماليكه وأمرائه ، وإن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين ... وسميت هذه الجزيرة جزيرة الحصن بعد ما بنى بها أحمد بن طولون حصناً سنة ٢٦٣ هـ ليحرز فيه حرمه وماله ، ولم يزل هذا الحصن عامراً أيام بني طولون وأقيمت به دار الصناعة التي تنشأ فيها المراكب الحربية ، واستمر الحصن داراً للصناعة حتى تولى محمد بن طغج الأخشيد مصر سنة ٣٢٣—٣٣٤ هـ فنقل دار الصناعة الى ساحل النيل بمصر .

صناعة مصر :

هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم ، يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، امرأة الأمير احمد بن طولون ، الى أن قدم الأمير ابو بكر محمد بن طغج الأخشيد ، أميراً على مصر من قبل الخليفة الراضي ، عوضاً عن احمد بن كيغلغ ، في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة هـ ورأى الاخشيد من الوجهة العملية انه يحول بينه وبينها الماء فأخذ في تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الى دار خديجة بنت الفتح في سنة ٣٢٥ هـ ، وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ في الجزيرة ، وفي صناعتها إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله تعالى ، وما زالت هذه الصناعة عامرة الى ما قبل سنة ٧٠٠ هـ ثم صارت بستاناً عرف ببستان ابن كيسان [1] .

صناعة المقس :

المقس [2] ضيعة ، كانت تعرف باسم أم دُنين ، واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأ صناعياً ، وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع

---

(١) خطط المقريزي .

(٢) قال ياقوت : المقس بالفتح ثم السكون وسين مهملة ، يقال : مقسته في الماء مقساً إذا غططته فيه ، والمقس كان في القديم يقعد عندها العامل على المكس ، فقلب وسمي المكس ، وهو بين يدي القاهرة على النيل ، وكان قبل الاسلام يسمى أم دُنين وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط وحاصرها عمرو بن العاص وقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى افتتحها في سنة ٢٠ هـ .

المقس ، وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والعشار بها ، ثم قلبت فقيل المقس ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق [١] .

وقال ابن أبي طيّ في تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله : (إنه أنشأ دار الصناعة التي بالمقس وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر على مينا) .

وعلى الجملة فقدعني الفاطميون بانشاء دور الصناعة ، وأكثروا من بناء الأساطيل فيها لمقاومة البيزنطيين الذين كانوا يهددون البلاد الشامية ، وهي تابعة الى مصر ، حتى غدت الدولة الفاطمية دولة بحرية تضاهي أساطيلها أقوى دولة أجنبية في حوض البحر المتوسط .

وكان في مصر حتى آخر القرن السادس للهجرة ثلاث دور للصناعة مشهورة ذكرها ابن مماتي [٢] صاحب قوانين الدول فقال : صناعة العمائر فيها تنشأ المراكب المذكورة ، ولها مستخدمون يستدعون ما يحتاج اليه ، ويطلق لهم المال والأصناف ويسترفع منهم الحسبانات ، وفيها ما يباع من حطام وغيره ، وترد حسباناتهم ؛ والصناعات الآن ثلاثة ، بمصر ، والاسكندرية ، ودمياط .

---

(١) خطط المقريزي .

(٢) هو القاضي الأسعد ابو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعد مهذب ابن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر توفي سنة ٦٠٦ هـ .

صناعة عكة وصور :

قال ياقوت : وفتحت عكة في حدود سنة ١٥ هـ على يد عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وكان لمعاوية في فتحها وفتح السواحل أثر جميل ، ولما ركب منها الى غزو قبرس رمّها، وأعاد ماتشعث منها؛ وكذلك فعل بصور ، ثم خربت فجددها هشام بن عبد الملك وكانت فيها صناعة بلاد الأردنّ وهي محسوبة من حدود الأردنّ ، ثم نقل هشام الصناعة منهـا الى صور فبقيت على ذلك الى قرابة أيام الامام المقتدر ، ثم اختلفت أيدي المتغلبين عليهـا ، وعمرت عكة أحسن عمارة ، وصارت بها الصناعة الى يومنا ذا ...

دور الصناعة في عهد الموحدين والمرابطين

كذلك أنشأ الموحدون والمرابطون دوراً للصناعة في مَرّاكُش وسواحل الأَندُلس، الغرض منها انشاء اسطول كبير لحفظ المواصلات بين المغرب والأندُلس ونقـل الجنود ، وأشهر ما عرف من دور الصناعة في هاتين العدوتين : طرابلس ، والقيروان ، وسوسه [1]

صناعة سلا :

سلا فرضة حصينة على المحيط الاطلنطيقي فيها دار للصناعة بناها المعلم ابو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل

---

(١) قال ابن رسته في الأعلاق النفيسة : هي على ساحل البحر المالح بهـا دار صناعة تعمل فيها المراكب البحرية ، وتردها المراكب .

اشبيلية، وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن اهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأثقال، بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية. وكانت سلافي أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ملجأ للقرصان.

جزيرة الخضراء:

ذكرها صاحب الروض المعطار من بلاد الأندلس، وقال: إن بها دار الصناعة بناها عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين للأساطيل وأتقن بناءها.

صناعة دانية:

هي في شرقي الأندلس على البحر. قال صاحب الروض المعطار: كانت السفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول الى الغزو وبها ينشأ أكثره لأنها دار انشاء.

شلطيس:

مرفأ للسفن وركاب البحر، ومرساها كنٌّ بكل ريح، وهي كثيرة السفن، وبها دار صناعة لانشائها، وتقع في غربي اشبيلية على البحر.

لقنت:

من بلاد الأندلس، وهي على صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق.

مالقة :

مدينة باسبانيا لا يزال بها الى الآن مبان عربية قديمة ، منها قلعة ودار صناعة يسميها الاسبان(Atarzana) .

ومنها : **سبتة ، وطنجة ، والصويرة**[1] ، **ورباط** وغيرها كثير .

بيروت :

ذكر صالح بن يحيى في تاريخ بيروت انها كانت في سنة ٧٦٧ هـ مركزاً كبيراً لصنع السفن . ولما غزا الافرنج الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ارتأى رجال الدولة في مصر أن يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة : حمالات وشواني للدخول الى قبرس ، فأحضروا الصناع من جميع الممالك وعمروا مصطبة في ظاهر بيروت و كانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر ، وأحضر الجند من دمشق ، فأنزل بين البحر والمراكب ، حذراً من مراكب صاحب قبرس لئلا يحضر العدو على حين غفلة ، فيحرق ما يعمل من المراكب ، وعملت حمالتان كبيرتان .

وكانت حيفا تشارك هذه الموانى في صنع المراكب ، وتسمى الأبنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي إشارة الى سفينة نوح التي استوت على الجودي .

وأما في البحار الجنوبية (فَعَيْذاب) على شاطئ البحر الأحمر ، (والبصرة) ، (وهُرْمز) في الخليج الفارسي (وسيراف) (وعُمان) كان فيها كلها دور لصناعة السفن .

---

(١) وتسمى مُغادور على ساحل البحر الاطلنطيقي .

خشب السفن

أغلى أصناف الخشب الذي تصنع منه المراكب هو شجر اللَّبَخ[1] الذي لا ينبت إلا بأنصنا[2]. وهو عود تنشر منه ألواح للسفن وربما أرعفت ناشرها لطولها، ويباع اللوح بخمسين ديناراً أو نحوها، وإذا شد لوح بلوح وطرحا في الماء ستة أيام صارا لوحاً واحداً.

وشح مرة خشب السفن في مصر ولا سيما أثر احتراق الاسطول في زمن الحاكم بأمر الله، وجدَّ علي بن نسطورس بعمل الاسطول، وطلب الخشب فلم يدع عند أحد خشباً علم به إلا أخذه منه، حتى قلعت صوار كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفي البيمارستان الذي في سوق الحمام، ونشروا جميعها، وأعدوا أسطولاً آخر[3].

وكان في مصر حراج كثيرة في مواضع متعددة لعمل الاسطول حدثنا عنها ابن مماتي قال: الحراج وهي في الوجه القبلي من الديار المصرية

---

(١) جاء في القاموس: اللبخة شجرة عظيمة ثمرها كالتمر لكنه كريه، واذا نشر خشبه أرعف ناشره، واذا ضم لوحان منه صارا لوحاً واحداً والتحما. وقال ياقوت: وقد رأيت أنا اللبخ بمصر وهو شجر له ثمر يشبه البلح في لونه وشكله ويقرب طعمه من طعمه، وهو كثير ينبت في جميع نواحي مصر.

(٢) في معجم البلدان: مدينة أزليه من نواحي الصعيد على شرقي النيل.

(٣) خطط المقريزي.

بالبهنسا في سفْط رشين، ومنبال، وشبطال، وبالأشمونين، وبالسيوطية، وبالإخميمية، وبالقوصية؛ ولم تزل الأوامر السلطانية خارجة بحراستها وحمايتها والمنع منها والدفع عنها؛ وأن توفر على عمائر الأساطيل المظفرة، ولا يقطع منها إلا ما تدعو إليه الحاجة، وتوجده الضرورة، إلى أن الولاة والمقطعين وجهوا إليها ونحوا عنها، فقطعوا أشجارها، ومحوا آثارها حتى لم يبق بقوص منها إلا ما لا يؤبه له وإلا ما لا يعتد به.

وأما حراج البهنسا فإنه كان ورد عليَّ كتاب كريم من السلطان رضي الله عنه وسقى عهده وروض لحده بأن أندب إليها من يكشف عما استضافه المقطعون من أرضها، فوجدت المأخوذ منها ثلاثة عشر الف فدان، ولا يُتعجب من تعديهم على مثل هذه الجملة، بل يتعجب من حراج يتحيف من جملة أرضها ثلاثة عشر الف فدان ولا يؤثر ذلك فيها ... والمشروط على المستخدمين فيما يؤخذ من خطوطهم انهم لا يقطعون شيئاً من خشب العمل الصالح لعائر الأسطول وإنما يقطعون الاطراف والهشيم ...).

وكانت البندقية في القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الامبراطور البوزنطي يحتج لدى الدوج، فأمر الدوج بإيقاف بيع الخشب للعرب ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذي لا يصلح لإنشاء السفن، ولهذا شرط: أن يكون من اللبخ، والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف

القدم ، وأذن ايضاً بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب [١] .

واتفقت مرة مصلحة البنادقة مع مصلحة العرب في بيعهم الخشب لعمل السفن في أيام الغوري سلطان مصر [٢] وذلك عندما جهز أسطولاً لحماية البحر الأحمر ، من أساطيل البرتغال ، الذين كانوا يهاجمون السفن العربية ، ويقاومون التجارة المصرية في المحيط الهندي ، والبحر الأحمر ، فنهب البرتغاليون هذه السفن واحرقوا بعضها ، وذبحوا ركابها ، فساعده البنادقة على انشاء اسطول جديد لإنشاء حملة بحرية كبيرة ، فأرسلوا إليه الأخشاب الى السويس ومعهم عمال ماهرون يتولون صنع السفن وإنشائها .

وذكر ابن بطوطة ، عند كلامه على مدينة (العلايا) الواقعة على ساحل بحر الروم في الأناضول ، انها كثيرة الخشب ، ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ، ويحمل منها الى سائر بلاد مصر .

---

(١) حضارة العرب في القرن الرابع . آدم متز .

(٢) تولى ملك مصر سنة ٩٠٦ وتوفي سنة ٩٢٢ هـ .

بناء السفن وأنواعها

لم يكن العرب في صدر الاسلام مهرة في صنع السفن ، ولا في تسيير المراكب في البحار ، فاستعانوا لذلك بمن كان بجوزتهم ، من الروم واليونان وغيرهم ، من الأمم التي دانت لهم وخضعت لحكمهم ، وفيهم الملاحون والنوتية الذين حذقوا هذه الصنعة وبرعوا فيها ؛ ثم لما استقر ملكهم ، واتسع سلطانهم ورست أساطيلهم على مرافئ البحار البعيدة ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، برع منهم

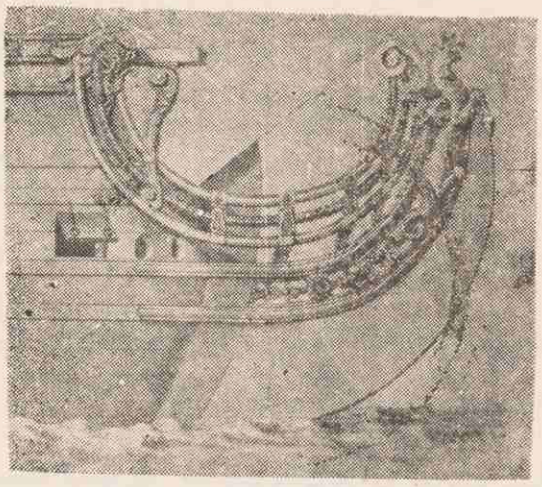

مثال لما كان عليه مقدم السفن لا سيما في القرن السابع عشر

صناع تفننوا في عمل السفن البحرية ، وأكثروا من بنائها حتى ملأوا البحار بالجواري المنشآت ، ووضعوا لها الأسماء بحسب اختلاف أشكالها وتباين أجرامها وحجومها ؛ فمنها ما صنعوه على أشكال بعض الطيور

كالعقاب ، ومنها ما صنعوه على أشكال بعض الأسماك والحيتان ، والحيات ، والحيوانات كالفيل ، والأسد ، والفرس ، والدلفين ؛ ولأبي نواس من قصيدة في الدلفين :

قد ركب الدُلفينَ بدر الدجى ... مقتحماً للماء قد لججا[1]
فأشرقت دجلة من نوره ... وأسفر الشطان واستبهجا
لم تر عيني مثله مركباً ... أحسن إن رسا وإن عرجا
إذا استحثته محاديفه ... أعنق فوق الماء أو هملجا[2]

ومثلها في مدح الأمين :

ألا ترى ما أعطي الأمين ... أعطي ما لم تره العيون

ولم تبلغه الظنون : ... الليث ، والعُقاب ، والدُلفين

ومهما تعددت أنواع السفن ، وتنوعت حجومها ، لا تخرج عن كون جزئها السابح في الماء يشبه الحوت في عومه ، وإلى ذلك أشار ابن خلدون في مقدمته عند كلامه عن النجارة قال : (وكذلك قد يحتاج الى هذه الصناعة ، في إنشاء المراكب البحرية ، ذات الألواح والدُسر ، وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة

---

(١) لجج القوم : ركبوا اللجه ، لججت السفينة : خاضت اللجة .

(٢) أعنقت الدابة : سارت سيراً واسعاً فسيحاً مسبطراً ، هملج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح ، وربما أعنيت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل .)

انواع السفن :

عانى بعض العرب في جاهليتهم الملاحة لمسيس الحاجة إليها في التجارة والأسفار ، وفي لغتهم ، وأشعارهم من أسماء السفن وأدواتها ما يؤيد هذا القول ، ويستدل به على اطلاعهم على هذا الفن ؛ فمن أسماء السفن عندهم :

[العَدَوْلِيَّة] وردت في شعر طرفة بن العبد ، وهي سفينة منسوبة الى قرية في البحرين يقال لها عدَوْلى ، وبعضهم يقول : عدولى قبيلة من قبائل العرب ، والعَدَوْلى الملاح .

[السفينة] وردت في الشعر الجاهلي والقرآن ، وهي الجارية ، من سفَنه يسفِنه قشره ، وسميت بذلك لقشرها وجه الماء ، جمعها سفائن وسُفُن وسِفين ، وصانعها سفّان وحرفته السِفانة . قال لقيط الإيادي [1] :

يا لهف نفسي إن كانت أموركم
شتى ، وأحكم أمر الناس فاجتمعا
إني أراكم وأرضًا تعجبون بها
مثل السفينة تغشى الوعثَ والطبعا

---

(١) هو لقيط بن يعمر شاعر جاهلي قديم مقل .

وقال تعالى: فأنجيناهُ وأصحابَ السفينةِ وجعلناها آيةً للعالمين[١].

[الخلية] جمعها خلايا ، وهي السفينة العظيمة أو التي تسير من غير أن يسيرها الملاح ، أو التي يتبعها زورق صغير .

[الفُلْك] السفينة .

[القُرقور] جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكُراع للأسطول .[٢] واصل اسمها بالاسبانيولية (كاراكا) .

[الزورق ، البوصيُّ] هما من أسماء السفن الصغيرة . قال الجوهري : والبوصيُّ ضرب من سفن البحر وهو معرب ، قال الأعشى[٣] :

مثل الفراتي إذا ماطمى يقذف بالبوصي والماهر

[القارب] سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم ، فهي من توابع الاسطول ، ومعروفة في مصر منذ صدر الاسلام ، وقد وردت في كتاب عمرو بن العاص الذي يصف فيه مصر .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٥

(٢) الخلية ، الفلك ، القرقور ، الجارية كلها اسماء للسفن الكبيرة

(٣) هو أعشى قيس المعروف بالأعشى الاكبر (٦٢٩ م) من أبيات قالها في تفضيل عامر على علقمة بن علاثة وهي :

إنّ الذي فيه تماريتما بين للسامع والناظر
ما جُعل الجدُّ الظنون الذي جُنّب صوب اللجب الماطر
مثل الفراتي إذا ماطما يقذف بالبوصيّ والماهر

ودخل على اسماء السفن في القرن الرابع للهجرة تطور كبير بسبب اقبال الدول الاسلامية على الاكثار من انشاء الأساطيل لرد غارات الافرنج ومنازلتهم في عقر دارهم منها :

[الشيني] لم ينص عليها ابن منظور في لسان العرب . ووردت في التاج للزبيدي : الشونة المركب المعد للجهاد في البحر ، والجمع الشواني لغة مصرية أيضاً . وجاء في المستدرك : الشين المركب الطويل ؛ ويقابلها بالفرنسية Galére وفي الايطالية Galera وهي أقدم أنواع السفن ، وكانت أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الاسلامي أو الروماني ، لأنها كانت اكبر السفن وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلة للجهاد ، وكانوا يقيمون فيها أبراجاً ، وقلاعاً للدفاع والهجوم وكان متوسط مايحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلاً ويحذف بمئة مجذاف وظل اسم الشيني معروفاً في الملاحة حتى ايام الدولة العثمانية .

وممن وصف الشواني من الشعراء ابن حمديس الصقلي السرقوسي قال يمدح أبا يحيى الحسن بن علي بن يحيى :

انشأت شواني طايرة وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها في شم شواهقها قُننا
ترمي ببروج إن ظهرت لعدو مخرقة بطنا
وبنفط أبيض تحسبه ماءً وبه تذكى السكنا
ضمن التوفيق لها ظفراً من هلك عداتك ماضمّنا

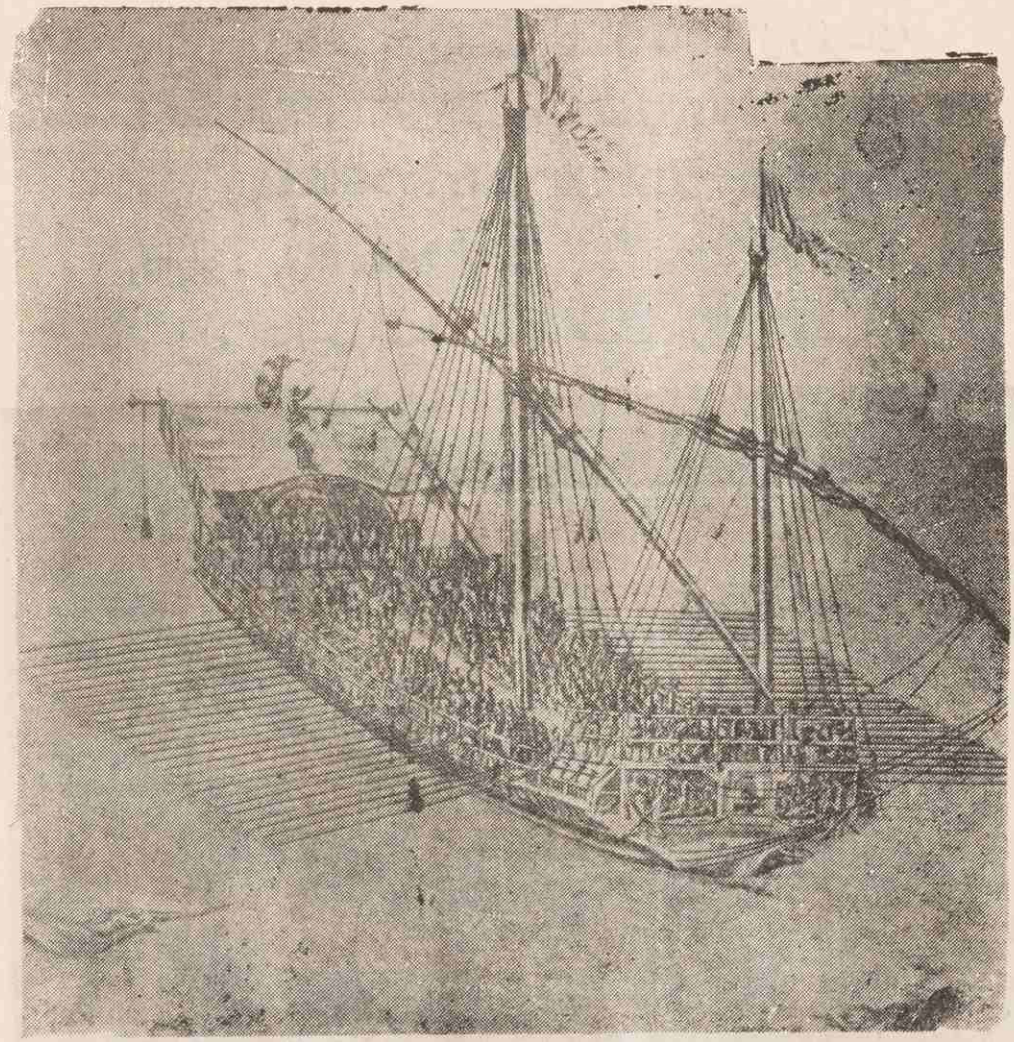

مثال للشواني التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر الميلادي

[الطراد] قال الزبيدي : طراد ككتان ، سفينة صغيرة سريعة السير والجري (عن الصاغاني) والعامة تقول : تطريدة ؛ وقال دوزي Dozy : هي نوع من المراكب الحربية ، أكثر شبهاً بالبرميل

الهائل من السفينة ، و كانت تستعمل غالباً في حمل الخيول والفرسان، وأكثر مايحمل فيها أربعون فرساً ، واستعملها الافرنج فأطلق عليها الاسبان اسم (Tarida) ، وأطلق عليها الطليان اسم (Tartana) وقال الفرنسيون : (Tartan) .

[الحرّاقة] جمعها حراقات ، وقد تجمع على حراريق ؛ وفي التاج:

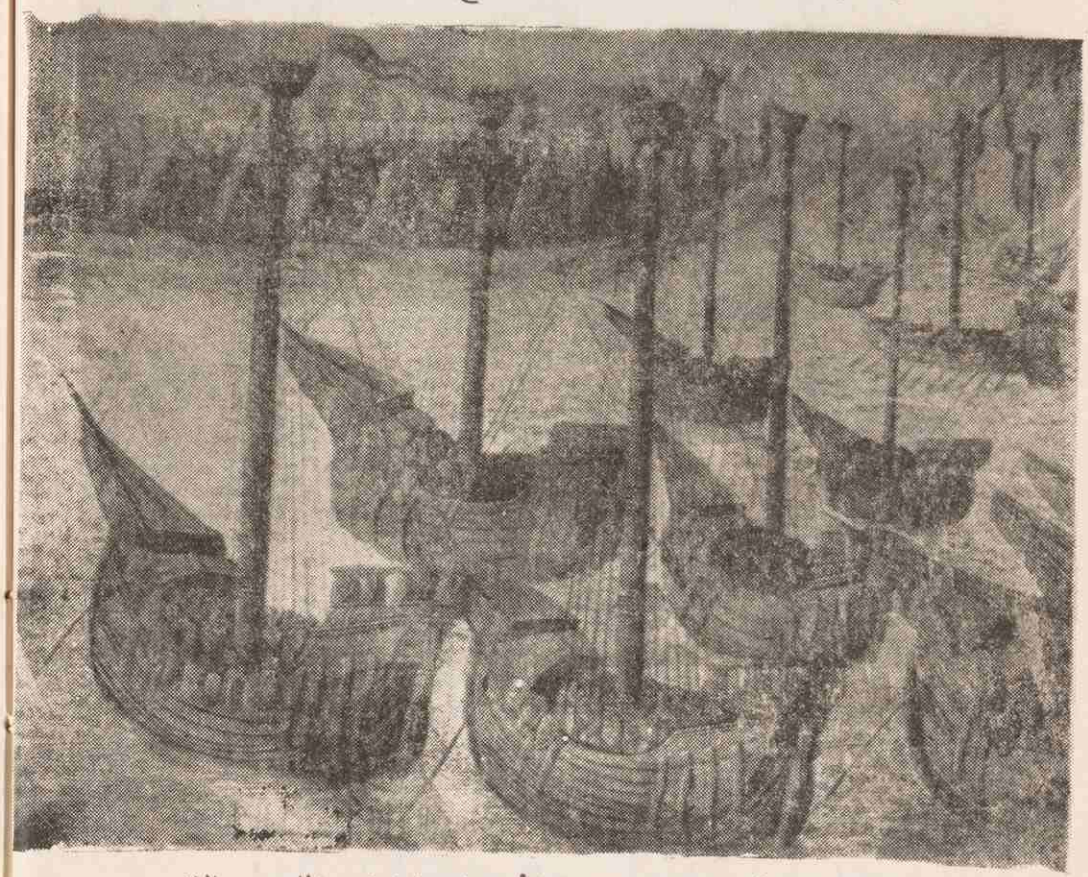

مثال من الحراريق التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس عشر الميلادي

الحراقات سفن فيها مرامي نيران ، وقيل هي المرامي أنفسها ، وقال

الجوهري : الحراقة بالفتح والتشديد ضرب من السفن ، فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر ، وقال الزبيدي أيضاً : والحراقات سفن بالبصرة وفيها مرامي نيران يرمي بهـا العدو في البحر وقيل هي المرامي أنفسها . وفي الأساس : ركبوا في الحراقة وهي سفينة خفيفة المر ، قلت ومنه قوله :

عجبت لحراقـة ابن الحسـ ... ـين لاغرقت، كيف لاتغرق!

وبحران : فوقها واحدٌ، ... وآخرُ من تحتها مُطبقُ

وأعجبُ من ذاك، أعوادُها ... وقد سها كيف لاتورقُ[1]

وقال دوزي : هي نوع من السفن الخفيفة . وفي محيط المحيط : هي نوع من السفن الحربية ، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الاغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . وفي المواعظ والاعتبار للمقريزي ما يفهم أن الحراريق كانت تستخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الحركات البحرية والحفلات الرسمية .

---

(١) هذه الأبيات وردت في وفيات الأعيان لابن خلكان في ترجمة طاهر ابن الحسين الملقب ذا اليمينين . . قال ابن خلكان : كان ابن طاهر شجاعاً أديباً ، ركب يوماً ببغداد في حراقته فاعترضه مقدس بن صيفي الخلوقي الشاعر وقد أدنيت من الشط ليخرج ، فقال أيها الأمير : إن رأيت أن تسمع مني أبياتاً ، فقال قل ، فأنشأ يقول : عجبت لحراقة ابن الحسين ... الخ فقال طاهر : أعطوه ثلاثة آلاف دينار ، وقال له : زدناحتى نزيدك ، فقال : حسبي !

ومن أنواعها ما كان معروفاً في صدر الدولة العباسية، يجري في نهر دجلة، للنزهة والنقل؛ وكان للخليفة محمد الأمين خمس حراقات في نهر دجلة على صورة: الأسد، والفيل، والعقاب، والحية، والفرس. وصفها الحسن بن هانىء في قصيدة مدح بها الأمين قال:

سخر اللهُ للأمينِ مَطايا ... لم تُسخر لصاحبِ المحرابِ
فإذا ما ركابه سِرْنَ براً ... سار في الماء راكباً ليثَ غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو ... أهرتَ الشدقِ كالحِ الأنياب[1]
لا يُعانيه باللجام ولا السوْ ... ط ولا غمزِ رجله في الركابِ
عجبَ الناسُ إذ رأوه على صو ... رةِ ليثٍ يمرُّ مرَّ السحابِ
سبحوا إذ رأوكَ سِرْتَ عليه ... كيف لو أبصروكَ فوق العُقابِ
ذات زور، ومنسر، وجناحي ... ن تشق العُبابَ بعد العبابِ
تسبق الطيرَ في السماء إذا ما اس ... تعجلوها بجيئةٍ وذهابِ

[الشلندي] جمعها شلنديات، وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة، والسلاح، وتعادل في أهميتها الشونة، والحراقة، وأصلها في اللاتيني (Chelandium)، واستعملها العرب فقالوا: صندل ويستعملها الافرنج لنقل البضائع. وكانت تعرف عند العثمانيين باسم (ماعونه) التي يعرفها البنادقة باسم Mahon،

---

(١) الأهرت: الواسع الشدقين.

ولها ساريتان أو ثلاث سوار ، يبلغ طولها ١٩٥ قدماً وعرضها ٣٣ قدماً وكانوا يجهزونها بـ ٢٤ مدفعاً ، وحمولتها ٦٠٠ شخصاً .

[العشاري] جمعها عشاريات ، والكلمة ليست عربية ، نقل المقريزي عن ابن الطوير : أنها من توابع الأسطول ، وكان يُسار بها في النيل ، منها ما كان خاص برسم الخليفة ، وهي الدواميس ومفردها دِماس ، يخرج بها أيام الخليج وغيرها ، ومنها ما هو برسم ولاة الأعمال ، وهي بقيـة العشاريات الدواميس ، وللمشارفين بالأعمال أي (المفتشين) عشاريات دون هذه .

وقد وصف لنا المؤرخ عبداللطيف البغدادي العشاري في سياحته الى مصر في أواخر القرن السادس قال : (وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال ، وأغرب ما رأيت فيها مركباً يسمونه (العشيري) شكله شكل (شباره)[1] داخله ، إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداماً وشكلاً ، قد سطح بألواح من خشب ثخينة محكمة ، وأخرج منها أفاريز[2] كالرواشن نجو ذراعين ، وبني فوق هذه السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة ، وفتح

---

(١) الشبارّة : نوع من السفن التي كانت تسير في نهر دجلة ، وهي تشبه الحرّاقه عند المصريين ، وكان للمأمون سوى سفن العسكر أربعة آلاف شبارّة كباراً وصغاراً .

(٢) الافريز من الحائط طَفْفه أي مانتأ منه (والكلمة من الدخيل)

له طاقات ، وروازن[1] بأبواب الى البحر من سائر جهاته ، ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة ، ومرحاض ، ثم يزوّق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان ، وهذا يتخذ للملوك والروسـاء ، بحيث يكون الرئيس جالساً على وسادته ، وخواصه حوله ، والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن ، وأطعمتهم وحوائجهم في قعر المركب ، والملاحون تحت السطح أيضاً ، وفي باقي المركب يقذفون به لايعلمون شيئاً من أحوال الركاب ، ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم ، بل كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده ، وإذا أراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن أصحابه ، دخل المخدع ، وإذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض . والملاحون بمصر يقذفون إلى ورائهم فهم في قذفهم يشبهون الحبالين في مشيهم القهقرى ، ويشبهون في تحريكهم السفن من يجذف ثقلاً بين يديه ويمشي به إلى خلفه . وأما ملاحو العراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل نحو أمامه ويدسر به ، فسفنهم تتوجه حيث الملاح متجه ، وأما سفن مصر فهي تتحرك الى ضد الجهة التي اليها الملاح ، وأما أي الحالتين أسهل ، والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعي وعلم تحريك الأثقال) .

[الجلاسة] هذا اللفظ معرب كلمة (Galéasse) الفرنسية وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة ، تسير بالشراع والمجاذيف ، وهي أثقل

---

(١) الروازن مفردها رَوْزنة وهي الكوّة (معربة)

وأقوى من الشيني ، كانت شائعة الاستعمال في البحر الأبيض المتوسط .

[الغراب] جمعها أغربة ، كانت معروفة عند القارطاجيين والرومانيين وغيرهم من أمم تلك العصور ، وبقيت إلى زمن الدولة العثمانية ، ولم يتغير شكلها ؛ ولا يبعد أن يكون اسمها مأخوذاً من اسم الغراب ، لأن مقدمتها على شكل رأسه كما هي عادتهم في صنع السفن . وجاء في (شفاء الغليل للخفاجي)[1] أن اسم الغراب لنوع من السفن مشهور في أشعار المحدثين لا سيما المغاربة ، ولا أدري هل هو على التشبيه أو غلط في الترجمة ، قال ابن الساعاتي[2] :

وركبت بحر الروم وهو كحلية ... والموج تحسبه جياداً تركض
وكم من غراب للقطيعة أسود ... فيه يطير به جناح أبيض

وقال ابن أبي حجلة[3] :

غربانها سود ، وبيض قلوعها ... يصفرّ منهنّ العدو الأزرق

وقال ابن الأبار[4] :

---

(١) احمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة الملقب بشهاب الدين الخفاجي المصري توفي سنة ١٠٦٩ هـ

(٢) ابو الحسن علي بن رستم بن هرْدوز المعروف بابن الساعاتي الملقب بهاء الدين الشاعر ولد بدمشق وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ

(٣) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة التلمساني الحنبلي نزيل دمشق ثم القاهرة مولده بالمغرب ، له اكثر من ثمانين مصنفاً ٦٢٥ — ٧٦٢ أو ٧٧٦ هـ

(٤) محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن ابو عبد الله القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار ٥٩٥ — ٦٥٨ هـ

يا حبذا من بنات الماء سابحة تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غرباناً بأجنحة الـ حمائم البيض للأشراك ترزؤه
من كل أدهم لا يلفى به جرب فما لراكبه بالقار تهنوءه
يدعى غراباً ، وللفختاء سرعته وهو ابن ماء ، وللشاهين جؤجؤه

[البُطسة] مركب للحرب أو التجارة بلغة الاسبان ، والجمع بُطس . وهي سفن عظيمة الحجم كثيرة القلوع ، قد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى أربعين قلعاً ، واشتهر هذا النوع من السفن في أيام الحروب الصليبية ، فقد كان هـذا النوع من السفن أشهر أنواع سفنهم ، فيشحنونها وقت الحرب بالآلات ، والأقوات والميرة ، والرجال ، والمقاتلة ، والأسلحة ، وآلات الحصار ، ويعـد محمولها بآلاف الخلق ، ولها أسطحة عالية ، وطبقات كل طبقة خاصة بفئة من الجيش يفرش بالبسط وغيرها .

وورد من أخبار البطس ، في كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد قال : (إنها وصلت من بيروت مشحونة بالآلات والأسلحة ، والميرة ، والرجال ، والأبطال ، والمقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها ، وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مرغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترض لها الانكتار في عدة شوان ، قيل كان في أربعين قلعاً ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها) .

[المسطح] جمعها مسطحات ، ربما سميت كذلك لأن لها سطحًا ، وقد وصفها دوزي Dozy فقال : « sorte de navire , peut - être un navire qui a un pont , un tillac » وهذه من أكبر سفن الأسطول الاسلامي ، وكانوا يجرونها في البحار خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق هذه في واديها .

ويقول لها الاسبان : Mestech ، والبرتقال : Mistico .

[المرمة] جمعها مرمات وهي نوع من السفن الكبار [1] .

[الشَّباك] قال دوزي Dozy : الشباك مراكب حربية صغيرة الحجم تستعمل عادة في البحر الأبيض المتوسط ، ويقال فيها شُباك ، وشبّاك ، والاسبان يقولون : Jabeque .

[الحمالة] جمعها حمالات وهي مراكب حربية تحمل الأزواد للرجال ، ويكون فيها غلمان الخيالة ، وصناع المركب ؛ ومثلها المراكب الديوانية التي تحمل الغلات السلطانية كما جاء في (المواعظ والاعتبار للمقريزي) .

[الأهورة] قال ابن بطوطة : هي نوع من الطريدة عندنا ، إلا انها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج ، وفوقه مجلس متهيأ لجلوس الأمير - وتسير في نهر

---

(١) حاشية كتاب السلوك للمقريزي ص ١٨٩ للاستاذ محمد مصطفى زيادة

السند ؛ وهي من أسماء السفن التي أخذها العرب عن الهند بعد الاسلام .

[البارجة] عربها العرب عن لفظة (بيره) الهندية ، وهي سفينة حربية كبيرة ، ثم قال العرب : سفينة بارجة ، فنعتوا بها السفينة الكبيرة المكشوفة . وقال صاحب المخصص : البارجة سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال ، وتقول : مافلان إلا بارجة ، تريد أنه جمع فيه الشر . وذكرها الطبري في حوادث سنة ٢٥١ هجرية فقال : (وخمس بقين من صفر دخل من البصرة الى بغداد عشر سفائن بحرية تسمى البوارج في كل سفينة اشتيام ، وثلاثة نفاطين ، ونجار وخباز ؛ وتسعة وثلاثون رجلاً من الجذافين والمقاتلة ، فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلاً) . وورد ذكر البوارج كثيراً في فتوح البلدان للبلاذري عند كلامه عن غزو المسلمين في بلاد الهند[1] .

[الشذا] قال الزبيدي : الشذا ضرب من السفن ، الواحدة شذاة ، (عن الليث) ونقله الزجاجي في أماليه ؛ قال الأزهري : ولكنه ليس بعربي صحيح . وفي المصباح : الشذوات سفن صغار كالزبازب الواحدة شذاوة . وقال ابن منظور : والشذا ضرب من السفن عن الزجاجي ، الواحدة شذاة ، قال ابو منصور : هذا معروف ولكنه

---

(١) والبارجة Bargie معروفة في البحار الشمالية ، وأول من انشأها الهولانديون ، ثم انتشر استعمالها عند الأمم الاوروبية ؛ اسفلها مستو مسطح وكانوا يستخدمونها في الأعمال الحربيه .

ليس بعربي ؛ قال ابن برّي : الشذاة ضرب من السفن والجمع شذوات .

ومثلها [السميريات] ومفردها سميريه ، وهي من سفن البحر والنهر ، وقد عرفت في أواخر القرن الثالث للهجرة ، وكانت معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة ، والرماة والملاحين ، وذكرها الطبري في حوادث سنة ٢٦٧ هجرية فقال : (كتب سليمان الى صاحب الزنج يسأله امداده بسميريات لكل واحدة منهن أربعون مجذافاً ، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميرية ، في كل سميرية مقاتلان ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس ... وكان أمير البحر يتشاغل أياماً قبل الحرب بعرض الشذا وما يلحقها من الشذوات الجنابيات ، والسميريات ، وترتيب قواده ومواليه وغلمانه فيها ، وتخيير الرماة ترتيبهم في الشذا والسميريات . وكانوا وقت الحرب إذا استأمنت شذاة من شذوات العدو كان أهلها ينكسون علماً أبيض يكون معهم ، وهذه هي علامة الأمان عندهم) ولما انقطعت الحروب البحرية في أواخر الدولة العباسية صاروا يستعملون هذه السفن في التجارة والأسفار .

[العكيري] من سفن الهند ، قال ابن بطوطة في كلامه عن السند : العكيري شبه الغراب إلا أنه أوسع منه وفيه ستون مجذافاً ، ويسقف حين القتال ، حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة .

[الجفن] جمعها أجفان ،نوع من السفن الحربية ، كانت تستعمل في بحار الهند ، وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته .

سفن متنوعة :

ومن أنواع السفن:[البركوشات، اوالبروكوس، والأعواديات والأغراري ، والعلابيات ، والحمائم، والسنابك] ومفردها سنبوك، وهذا اللفظ غير عربي وتكتب أحياناً بالصاد .

جاء في تاج العروس : (السنبوك كعصفور السفينة الصغيرة ، حكاه الزمخشري في الكشاف وهي لغة الحجاز ، ونقله الخفاجي في شفاء الغليل ، وقال : إنه ليس من الكلام القديم وحمله على المجاز من سنبك الدابة .)

[والخنّ] السفينة الفارغة . قال صاحب القاموس : والخن هو عند العامة الآن موضع فارغ في بطن السفينة يضع فيه النوتي متاعه .

[والمعبدة] هي السفينة المقيّرة . وأول من أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة غير المخروزة المدهونة والمسطحة غير ذوات الجآجئ الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد وصف هذا النوع من السفن الحسن ابن هانئ فقال :

بُنيت على قدر ولاءم بنيها ... طبقان من قير ومن ألواح
فكأنها والماء ينطح صدرها ... والخيزرانة في يد الملاح
جون من العقبان يبتدر الدجى ... يهوي بصوت، واصطفاق جناح

[الطيّارة أو الطيّار] ضرب من السفن النهربة القديمة ، قال عبد الله بن المعتز :

بالكرخ والميدان لي منزل ولذتي القفص وقُطربل
وخير مـال لي طيارة تدبر بي في السير أو تُقبل
يلاطمُ المـاء مجاديفها حاملةٌ لكنهـا تحمل
غايتهـا قصرُ حُميدٍ وفي بستانِ بشر دهرها الأطول
وإن نجد من مأصر غفلةً تطِرْ الى كُركين ، لا تعدلُ

ثم [الزخارف] وهي مازين من السفن . و [الصلعة] السفينة الكبيرة . و [الآمد والآمدة] السفينة المشحونة ، و [الجراب والجفاية] السفينة الفارغة . و [القادس] السفينة العظيمة ، و [المزراب] السفينة الطويلة أو العظيمة و [الكار] سفينة منحدرة فيها طعام ، و [الغارب والخليج] من السفن الصغار . و [الدسراء] السفينة وجمعها دُسر وهي التي تدسر الماء بصدرها ، وفي القرآن الكريم : وحملناه على ذات ألواح ودسر ، وقال بشر :

معبَّدة السقائف ذات دُسر مقيّرة جوانبها رداح

ثم [النهبوغ] السفينة الطويلة السريعة الجري البحرية ، ويقال لها الدونيج معرَّب دوني في الهندية ، و [الزبزاب] سفينة صغيرة ، قال الشاعر :

زبزاب تحكي إذا سيرت عقاب تجري على زيبق

وسفينة زبزبة ضخمة . و[المصباب] السفينة : قال الهذلي :

والجن لم تنهض بما حملتني أبداً ولا المصباب في الشرم

[الهرهور] ضرب من السفن ، ومثلها [الماجشون ، والسابحات ، والعجوز ، والجفل] وغيرها .

الأسطول

يقال لمجموع السفن الحربية (الاسطول) وهو لفظ يوناني الأصل بلفظ Stolos . وكان يطلق أحياناً على المراكب الحربية المجتمعة ، وأحياناً على مركب حربي واحد ، كما قال صاحب شفاء الغليل[1] : والاسطول مركب تهيأ للقتال ونحوه ، قال البحتري :

يسوقون أسطولاً كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر

والاسطولي هو العسكري الذي يعمل في البحر ، أما الذي ينتظم في سلك الجيوش البرية فهو الجندي .

ولكل أسطول قائد ورئيس ، فالقائد ويقال له أمير البحر أو أمير الماء ، وهذه الكلمة من الألفاظ العربية التي انتقلت الى اللغات الافرنجية وعُرفت عندهم بـ Amiral أو Admiral وهو عليه أن يدبر أمر سلاح الأسطول ، وحربه ومقاتلته ؛ ويقابلها بالإفرنسية : Commandant d'un navire de guere.

وأما الرئيس ويقال له : الربان[2] وهو رئيس الملاحين

---

(١) وابن خلدون في تاريخه يوردها بهذا المعنى فمرة يقول : (وصله من مرية بعشرة اساطيل) ومرة يقول : جهز له مئة وثمانين اسطولاً ...الخ).

(٢) الربان بالضم رئيس الملاحين كالرباني ، ويقال له أيضاً : الاشتيام او الاستيام كما وردت في تاريخ الطبري : (حتى اذا استمرت الحرب امر الجدافين والاشتياميين أن يحثوا السير ...) وكذلك قال : (فصلت الشذوات بعضها بعضاً حتى لم يكن للاستيامين والجدافين فيها حيلة ولا عمل)

أو النوتية[١] وعليه أن يدبر جري الأسطول بالريح أو المجاذيف ، وأن يعرف مسالك البحر ومجاريه بواسطة الرهنامج[٢] ويسمونه في البحار الجنوبية (المعلم) وكان يطلق على وزير البحر (مقدم الأسطول) في دولة بني الأغلب . وأشار ابن خلدون في مقدمته الى وظائف رؤساء المركب فقال : (... وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النوتية يدبر أمر حربه ، وسلاحه ومقاتلته ؛ ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف ، وأمر إرسائه في مرفئه . فاذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل ، أو غرض سلطاني مهم ، عسكرت بمرفئها المعلوم ، وشحنها السلطان برجاله ، وأنجاد عسكره ، ومواليه وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة) .

وقال في موضع آخر : (قيادة الأساطيل من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية ، ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ، ويسمى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح لغتهم) .

---

(١) النوتي الملاح والجمع النواتي ، والعَرَكي الملاح ايضاً ، والملاح الذي يلي الشراع . واما الملاح ككتاب فهي الريح تجري بها السفينة .

(٢) الرهنامج : كتاب الطريق وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها .

وفي السفينة المنادي ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين بصوته، وأما الناخذاة فقد ورد في القاموس : إن النواخذة مُلاّك سفن البحر أو وكلاؤهم ؛ معرّبة الواحدة ناخذاة ، اشتقوا منهـا الفعل فقالوا : تَنَخّذَ كترأس .

وأول ما أنشئ الأسطول بمصر في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم ، عندما نزل الروم دمياط سنة ٢٣٨هـ وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحق ، فملكوها وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفـال ، ومضوا إلى تنّيس فأقاموا بأشتومها ، فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ؛ وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية ، وجميع أنواع المحاربة ، وانتخبوا له القواد والعارفين بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، هذا وللناس إذاك رغبة في جهاد أعداء الله ، وإقامة دينه ؛ لاجرم انه كان لخدام الأسطول حرمـة ومكانة ، ولكل أحد من الناس رغبة في أنه يعد في جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه [1] .

---

(١) خطط المقريزي

المشهور من أدوات السفن وأجزائها

(القِلع) بالكسر الشراع ، والجمع قلاع ، قال قائلهم :

يكب الخلية ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها ينحطم

(المجداف) ما تجدف به السفينة ، قال ابن دريد : مجداف السفينة بالدال والذال جميعاً لغتان فصيحتان ، وهو مأخوذ من جدف الطائر يجدف جدوفاً إذا كان مقصوصاً ، فرأيته إذا طار كأنه يرد جناحيه إلى خلفه .

(المرادي والقيقلان) خشبة يدفع بها السفينة ، ورأسها في الأرض قال شاعرهم :

وجارية قعدتُ على صلاها أداري صدرها بالقيقلان

(السُكان) دفة السفينة التي في مؤخرها ، وتديرها ذات اليمين وذات الشمال . قال المقدسي : كانت دفات السفن التى تجري في البحار تحرك بحبلين كسفن النزهة عندنا .

(الأنْجَر) في القاموس المحيط : (مرساة السفينة خشبات يُفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست رست السفينة ، معرَّب لنَكَر) ؛ وكان على ظهر السفينة عدد من المراسي يقال لكل منها أنجور بلفظها اليوناني ، وكان يستعمل لسبر الأغوار سبَك . والمرساة بفتح الميم البقعة التي رست فيها السفينة .

(الدَّقل) سهم السفينة وأصله الأول .

(الجؤجؤ) صدر السفينة .

(الكوثل) ذنب السفينة .

(القَلْسُ) حبل السفينة ويسمى الجمل ، وهو حبل ضخم من ليف أو خوص من قلوس السفن .

(الدسار) واحد الدسر ، وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هي المسامير .

(المتلمظ والملمظة) مقعد الاستيام وهو رئيس الركاب والملاحين .

(السلوقية) مقعد الربان من السفينة .

(النَّوْل) جُعل السفينة ، كلمة يونانية الأصل ، معناها مايدفعه المسافر الى المركب من الأجرة .

(الحك) في العصور التي كان فيها البر والبحر مجهولين عند الناس ، اخترعت الابرة المغناطيسية البحرية في الملاحة لترشد السفن في مجاريها وتهديها سبلها . وكانت بمثابة دليل للملاحين يستعملونها في سفنهم . وقد عرفها الطليان قديماً فقالوا : Bussola ، وقال الفرنسيون Boussole ، وقال الانكليز Campass .

وتصنع هذه الآلة بحسب موضع وطريقة استعمالها . وهي وعاء من النحاس الأصفر يصنع على شكل نصف كرة أو اسطوانة ، نصب في مركزها محور من الفولاذ ، حوله ميناء مرسوم عليها اتجاهات الرياح

بشكل نجمة لها اثنان وثلاثون شعاعاً ، يشير كل شعاع منها إلى جهة ريح بعينه . وهناك ابرة أحد رأسيها ممغنط وفي وسطها نقرة صغيرة ركزت على ذلك المحور لتبقى مضطربة فوقه ، وليظل رأس المحور محافظاً على دقته ولكيلا تفقد الأبرة مرونتها عليه فقد وضع داخل النقرة قطعة من (حجر سليمان) ثم وضعت هذه الآلة بغطاء من زجاج أشبه بغطاء الساعة . وحيث إن طرف هذه الإبرة الممغنط يتجه دائماً إلى جهة الشمال فهي لذلك ذات فائدة كبرى في تعيين اتجاه السفن في البحار .

وفضلاً عن فائدتها في الملاحة لها أهميتها العظمى في البر أيضاً فهي تساعد على تخطيط الخرائط والمصورات ومعرفة اتجاهات عروق المعادن في المناجم ، وفي أخذ المساحات ، وفي كثير من الاعمال الهندسية .

وكانت في العصور السالفة بشكل وعاء صغير فيه ماء ، تطفو على سطحه قطعة من الفلين أو الخشب ، قد وضع فوقها ابرة ممغنطة [1]

---

(١) أما فيما يتعلق بالمادة المغناطيسية التي صنعت منها هذه الابرة ، فقد تعددت الروايات عن كيفية ايجادها (بغض النظر عن ماهيتها ومكان اختراعها ، وزمانه) فكانت كل من ايطاليا ، وفرنسا ، وانكلترا ، ونورماندیا (اسم النورمانديين كان يطلق على قرصان سكان اسكانديناويا في القرون الوسطى) تعد نفسها صاحبة الفضل الأول بايجادها .

غير ان (السير وليام هاري — Sir W. Hurry) أحد علماء الانكليز المختصين بفن المغناطيس يقول في كلامه عن المغناطيس ، انه معدن يجذب اليه الحديد ، والنيكل ، والكروم والشبه ، وهو على نوعين : طبيعي وصنعي ، فالطبيعي أول —

تشير إلى اتجاه ثم في نواح من مهاب الرياح ، ولا تستعمل إلا في الهواء الراكد .

أما فيما يتعلق باستعمال هذه الآلة في الملاحة ، فان السائح الشهير مار كوبولو Marco polo عندما عاد من سياحته في بلاد الهند (من ١٢٧١ – ١٢٩٥م) نقل إلى أوربا خبر استعمالها في تلك الأصقاع كآلة بحرية دون أن يعرف الأوربيون شيئاً عن كيفية استعمالها وحقيقتها .

وقد أجمع المؤرخون الثقات ، أن الابرة المغناطيسية بدأ استعمالها في الملاحة بين الأوربيين منذ القرن الثاني عشر للميلاد إلا أن الروايات تضاربت عن كيفية دخولها ، وصنعها ، وذلك بدافع الدين والسياسة ، والقومية .

على أن بعضهم يقول : إن (فلافيوجيوجا Flavio gioja) من سكان مدينة أمالفي Amalfi بمملكة نابولي ، قد اخترع آلة بحرية

— ما وجد في الصين وذلك قبل الميلاد، ثم انتشر استعماله في آسيا واوربا بعد الميلاد.

وفي رواية أنه أول ما وجد في آسيا الصغرى أيام اليونانيين في جبال مغنيسا الواقعة في جوار مدينة أيدين في مقاطعة ليديا ، ونسبةً الى مكان وجوده سمي (حجر ماغنز) او مغنز ، ثم صار بعد ذلك يستخرج بشكل الواح ثخينة في سائر انحاء المعمور . فمغناطيس بلاد العرب ذو لون أسود أو أخضر أو أزرق، ومغناطيس الصين والبنغال يعرف باحمرار لونه وقوة مغناطيسيته ، ولون مغناطيس المانيا وانكلترا يشبه لون الحديد الخام ، ومغناطيس مكدونيا شديد السواد .

أما المغناطيس الصنعي فهو يصنع من الحديد او الفولاذ وذلك بدلكه بالمغناطيس الطبيعي، أو بتسليط تيار كهربائي عليه ، أو بتركه في باطن الأرض مدة ليمغنط بتأثير القوة المغناطيسية التي في باطن الأرض .

سنة ١٣٦٢ م ، وظل الأوربيون يدّعون هذه الدعوى حقبة طويلة من الزمن ، ودليلهم على ذلك وجود صورة الابرة المغناطيسية على رنك ملك نابولي . ولكن المؤلف الانكليزي الشهير (جامبرس) يرد هذه الرواية ويعتبرها من الأراجيف التاريخية ، ويقول : إن الابرة المغناطيسية موجودة قبل ذلك التاريخ إلا أنها قد ارتقت على يد الايطالي المذكور (فلافيوجيوجا) منذ القرن الثالث عشر .

من ذلك كله يتحقق لدينا أن ليس فلافيوجيوجا الايطالي ولا غيره من الأوربيين اخترعوا هذه الآلة البحرية ، بل إن الأوربيين نقلوها عن العرب فيما نقلوا أثناء حروبهم الصليبية في القرون الوسطى ، فالبرتغاليون وهم أشهر من ركب البحار من أمم أوروبا ، تعلموا الملاحة من جيرانهم العرب في الأندلس ، وكانت الابرة مستعملة في السفن العربية إبان تفوق العرب في البحار ، إذ أن القرن الثاني للهجرة يوافق القرن الثامن الميلادي ، فليس من شك بأنها دخلت أوروبا عن طريق العرب ، بعد أن علمنا أنها استعملت في السفن الأوربية اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي .

والذي يؤيد هذا القول أدلة كثيرة منها : قول جامبرس المؤلف في علم المغناطيس الذي يعتمد في تأليفه على مصادر موثوق بصحتها ، وكذلك (الدكتور طايلر) في كتابه (التاريخ الاسلامي) إذ يقول : إن الملاحين الاسبان والبرتغال الذين اكتشفوا طريق امريكا ورأس

الرجاء الصالح قد أخذوا الفنون البحرية ونقلوها عن معلمي العرب ، وهم مدينون لهم في هذه الاكتشافات . ويقول (عابدين باشا) من ديار بكر في تاريخه (مرآة العبر) : إن البوصلة من اختراع الصين ، وهم أول من استعملها ، ثم نقلها عنهم الهنود ، ونقلها العرب عن الهنود ، ثم أخذها الأوربيون عن العرب ؛ وكذلك يروي لنا (محمد باشا) مؤلف كتاب (رهنماي سفائن) بعد استقصاء طويل وبحث عميق أن الأوربيين تعلموا استعمال الابرة المغناطيسية من العرب .

وأحمد بن ماجد العربي من عظماء رجال القرن الخامس عشر الميلادي في علم الملاحة والذي يرجع إليه الفضل في اختراع كثير من آلات وأدوات الملاحة ، وأشهرها الابرة المغناطيسية ، فقد قال في كتابه (الفوائد في أصول البحر والقواعد) (... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحك بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب ، إنه لم يقابل الجاه « الجهة » إلا سهيلية « أي جهة سهيل » فميزوا في هذه النكتة فاذا كان أحد يعرف ، فنحن مسبوقين « كذا » وكذلك رتبنا المنكاب وأدركناه في الذهبية ...) وابن ماجد هذا هو الذي قاد الملاح البرتغالي الشهير (واسقودوغاما) في بحار الهند وأطلعه على كثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالاصطرلاب ، والمغناطيس وغيره .

سفن البحر الأبيض المتوسط

كانت الشواني هي أقدم أنواع السفن الحربية التي عرفها المسلمون، والتي اهتموا بصناعتها وأكثروا من تعدادها، فكانت أهم القطع لديهم في حروبهم في بحر الروم حتى أيام الدولة الفاطمية، ودولتي المماليك في مصر، ودول المغرب والأندلس.

قال ابن جبير: (لم تكن السفن ذات الدفتين موجودة في غير البحر الأبيض) وكانت مراكب هذا البحر اكبر من مراكب المحيط وذات مسامير، وكانت السفينة الواحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال، وعلى ظهرها حوانيت ومنازل، وكانت تقطع هذا البحر عرضاً في ستة وثلاثين يوماً، في مبدئه في الغرب إلى آخره حيث انطاكية. وكانت مراكب العرب الحربية أكبر حجماً من مراكب البيزنطيين، ولكنها أقل سرعة وأبطأ حركة، وأما المراكب التجارية فكانت على غاية الفخامة والنشاط.

وذكر النويري صاحب (كتاب الالمام بما جرت به الأحكام والأمور المقتضية في وقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ١٣٦٥ م) من صنوف السفن التي كانت تجري في بحر الروم: القراقير، والزوارق، والطرايد، والغربان، والشواني، والشياطي «واحدها شيطي» والسلالير

« واحدها سلورة »والعشاريات « واحدها عشاري » لكل منها مكانته في الحرب ، ونقل الجيوش ، والخيول ، ووسق البضائع ومستلزمات الجند ، والقراقير لحمل البضائع ، ومنها ماهو بثلاثة ظهور ، ولها ثلاثة قلاع تسير بها في الريح العاصف ، وأما الطريدة فانها مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . وأما الغربان فتحمل الغزاة وسيرها بالقلع والمجاذيف ، منها مالهماية وثمانين (كذا) مجذافاً وأقل من ذلك ، والشيطي يجر بثمانين مجذافاً ووظيفته كشف المين ، ويرد بالخبر للقراقير والغربان وغيرها « وتشبه سفن الاستطلاع اليوم »وأما العشاري فيجر بعشرين مجذافاً وهو الذي يعدي بالبضائع والرجال من الساحل لأن القراقير لا تقف إلا في المكان الغزير الماء ، والسلورة بين الشيطي والعشاري ، والقوارب نافعة لغزاة المسلمين وقت الحرب في البحر ، يكون في كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يعينوا غربان المسلمين على القتال لغربان الفرنج وقراقرها ، وذلك بسرعة دورانها وخفتها على مراكب الفرنج[1] .

---

(١) من تاريخ المماليك البحرية للدكتور علي ابراهيم حسن ص٣١٧—٣١٨

سفن البحر الأحمر

كانت سفن البحر الأحمر تخاط بحبال الليف ،وهي من صنع أهل (عَيْذاب) ، إذ ليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها(الجُلُبات) واحدها(جُلْبة) وهي ملفقة الانشاء ولايستعملون فيها ، المسامير وإنما يخيطون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسراً من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنَّوْرة فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت يغرق الكثير منهم بسببها .

ووصف لنا ابن جبير كيفية عمل هذه المراكب فقال : (إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بأمراس من القِنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء المراكب على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع ، أو بدهن القِرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر . ومقصدهم من دهان الجلبة هو أن يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري)

ويعلل القزويني في عجائب المخلوقات عدم استعمال المراكب

المسمرة في هذا البحر تعليلاً لا ينطبق على الحقيقة فيقول : (إن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس ، وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها ، فلهذا لا تستعمل المسامير في هذا البحر خوفاً من جذب جبال المغناطيس لها !!) .

ويصف الادريسي السفن التي تسير في هذا البحر فيقول: (كانت قيعان السفن التي تسير في البحر الأحمر عراضاً دون تعميق في تركيبها لتحمل بذلك كثيراً من الوسق ولا تدرّس على كبير ترس) .

وشاهد ابن بطوطة صعوبة السير في هذا البحر فقال : (وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب ، وهم يسمون رئيس المركب الربان ، ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السُّكان على الأحجار وهم يسمونها البنات) .

ويصف ابن جبير أيضاً صعوبة الابحار في هذا البحر فيقول : (... وكانت أهوال شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه منها : ما كان يطرأ من ضعف عدة المراكب واختلالها ، واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه ، أو جذب مرسى من مراسيه ، وربما سنحت الجلبه بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها

فنسمع لها هدءً يؤذن باليأس، فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً ...)

أما ابن الأثير فانه يروي لنا: (أنهم من عادتهم إذا أرادوا الغزو في هذا البحر يفصلون أجزاء السفن في دور الصناعة في مصر ويحملونها على الجمال الى الطور الى ساحل بحر القلزم، فاذا وصلوا سمروها وأكملوا انشاءها وتأليفها، ورفعوها في البحرور كبوها، وممن فعل ذلك من الصليبيين (أرناط) صاحب الكرك في سنة ٥٧٨هـ فقد أنشأ سفناً وحملها على البر إلى بحر القلزم، وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين على (حرْزة) قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء، وسارت البقية نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركباً للمسلمين ...)

سفن المحيط الهندي

قال مار كوبولو : (إن المراكب التي كانت تستعمل في هرمز من أسوأ صنف ، ومعرّضة من يركبها للمهالك ، وذلك راجع إلى أنه لا يستطاع استعمال المسامير في بنائها ، وإنما كانت تثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بمثقاب من الحديد ، ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض ، بنوع من الليف يصنع من قشر جوز النارجيل ، ولا يطلى بعد ذلك بالقار ، بل بزيت يتخذ من دهن الحوت ، والسفن التي تجري في هذا المحيط لم يكن فيها اكثر من طبقة واحدة ، وكانت في معظم الأحيان ذات شراع واحد [1])

وقال المسعودي : (وكانت مراكب البصرة بيضاء مشحمة بالشحم والنورة ، وكانت سفن العرب تصل في هذا البحر إلى جزر مالابار ، وما وراء ذلك شرقاً ، وإلى أسافل بحر الزنج إقليم سفالة (موزامبيق) غرباً وهي أقاصي بلاد الزنج وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين . وكان يغريهم بقصدها معدن الذهب في ماشونالاند ، وكان الحديد أكبر ما يؤخذ منها إلى الهند

---

(١) حضارة العرب آدم متز .

للصناعة ، وكان في سفن هذا البحر كثير من الحمام يطلقونه فيعود إلى بلاده يحمل أخبار أصحاب السفينة) .[1]

ويصف ابن بطوطة مراكب الصين فيقول : (مراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى (الجنوك) واحدها (جُنك) والمتوسطة تسمى (الزّو) والصغار يسمى أحدها (الكَكم)[2] ويكون في المراكب الكبيرة منها اثنا عشر قلعاً فما دونها إلى ثلاثة ، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبداً ، ويديرونها بحسب دوران الريح ، وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ، ويخدم في المراكب منها الف رجل ، منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة ، وأصحاب الدَّرَق ، والذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفي ، والثلثي ، والربعي ، ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلان وهي صين الصين . وكيفية انشائها إنهم يضعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاثة أذرع ، فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاها فرش المركب الأسفل ، ودفعوها في البحر ، وأتموا العمل ، وعلى جوانب تلك الخشب

---

(١) مروج الذهب .

(٢) هذه الأسماء غير عربية ولا معرَّبة .

تكون مجاديفهم ، وهي كبار كالصواري ، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويجدفون وقوفاً على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت [١] ، والمصاري [٢] ، والغرف للتجار ، والمصرية منها ما يكون فيها البيوت والسنداس [٣] وعليها

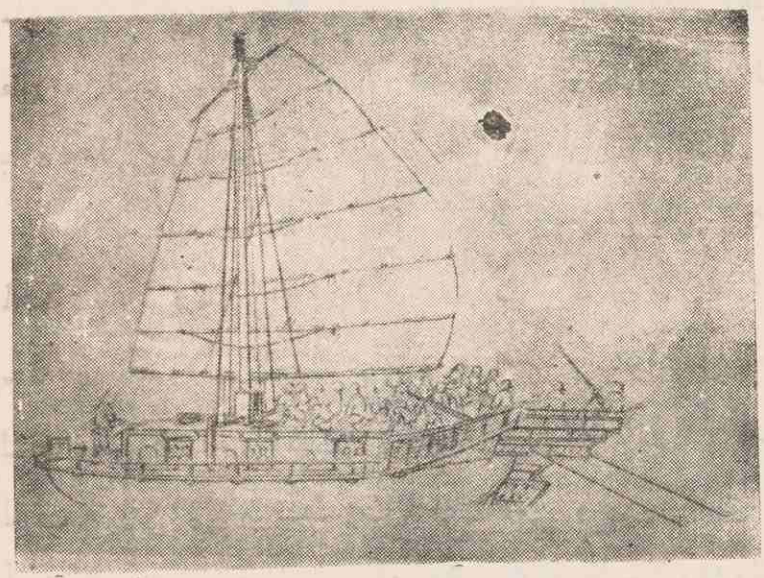

مثال للجنك الذي كان يستعمل في بحار الهند

المفتاح ، يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء ، وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد ، والبحرية يسكنون فيها

(١) الغرف .

(٢) المصرية حجرة النوم وما يتبعها من مرحاض وغيره .

(٣) السنداس : المرحاض ، غير عربي .

أولادهم ، ويزرعون الخضر ، والبقول ، والزنجبيل في أحواض خشب ، ووكيل المركب كأنه أمير كبير ، وإذا نزل الى البر مشت الرماة ، والحبشان بالحراب والسيوف والاطبال والأبواق ، «والأنفار» أمامه ، وإذا وصل الى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته ، ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه الى البلاد ، وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين .[1])

وجاء في كتاب سلسلة التواريخ لأبي زيد الحسن وسليمان التاجر المطبوع بباريس سنة ١٨١١ م (أن مما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا ، أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ، ولا يقوم في أنفسهم ذلك ، حتى وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخرزة ، التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر ، فقذفت إلى بحر الخزر ، ثم جرى في خليج الروم ، ونفذ منه إلى بحر الشام ، وإن الخشب المخرز لا يكون الا لمراكب سيراف خاصة ، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة .)

وورد أيضاً : (وكانت مراكب أهل سيراف إذا وصلت من بحر الهند إلى جدة أقامت بها ، ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم إذ كان لا يتهيأ لمراكب

---

(١) رحلة ابن بطوطة

السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته ، و كثرة جباله النابتة فيه ، وانه لا ملوك في شيء من سواحله ولا عمارة ، وان المركب إذا سلكه احتاج في كل ليلة إلى أن يطلب موضعاً يستكن ، فيه خوفاً من جباله فيسير النهار ويقيم الليل ، وهو بحر مظلم كريه الروائح لاخير في بطنه ولاظهره وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب)

أدوات الحرب في الاسطول

كان من أدوات الحرب في الاساطيل عندهم : الزرد ، والخود ، والدرق ، والتراس ، والرماح ، والعصي ، والكلاليب ، والباسليقات وهي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد . ومنها :

[الدبابة] وهي شبه برج متحرك له أربعة أدوار : أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر ، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات ، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار ، وكانوا يضعونها بالشواني .

[الكباش] جمع كبش آلة متصلة بالدبابة ، له رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الاسوار لتهديمها .

[العرّادة] أصغر من المنجنيق يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء وتوضع في الحراقة .

[مكاحل البارود [1]] قال القلقشندي :(هي المدافع التي يرمى

---

(١) ننقل هنا ما جاء في كتاب الاستقصا عن البارود قال : (قال ابن خلدون : ونصب عليها (أي سجلماسه) هندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود ، بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها) اهـ . فالبارود كان موجوداً في ذلك التاريخ (٦٧٢) هـ وان الناس —

عنها بالنفط ، وحالها مختلف ، فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال

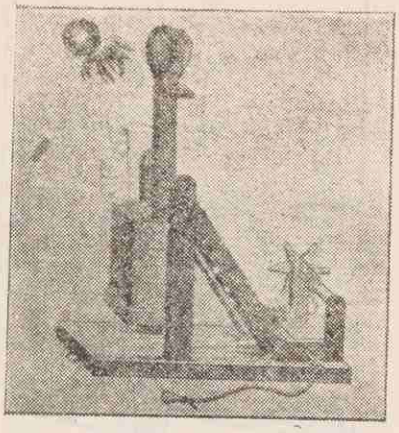

صورة منجنيق لرمي النفط

بالمصري إلى ما يزيد على مائة رطل . وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الأشرفية – شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين

ـ كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذ . وفيه ردلما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس . قال : كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد ، وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه البارود اهـ .

وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته على مختصر الشيخ خليل بأن حدوثه كان في وسط المئة الثامنة ، وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون انه كان موجوداً قبل ذلك بنحو مئة سنة ، ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم) .

ابن عرّام رحمه الله — بها مدفعاً قد صُنع من نحاس ورصاص ،

آلة حصار عربية لاطلاق النار اليونانية

وقيد بأطراف الحديد، رمي عنه من الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة) .

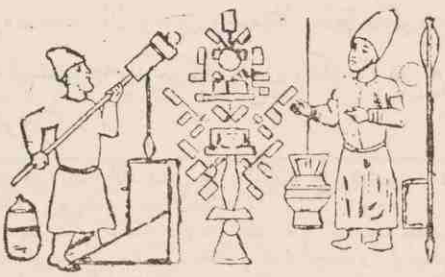

صورة رجلين عربيين يشتغلان في الأسلحة النارية . (عن مخطوط في مكتبة ليننغراد)

[النار اليونانية] هي في الاصل من اختراع المشارقة ، فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجا سريع الاشتعال لم يعرفه أهل اوروبا الا في القرن السابع للميلاد ، والمخترع له على ما ذكره المؤرخ (جيبون) هو رجل من بعلبك يسمى (كالينيكوس) نقله إليهم ، وكان الروم يومئذ في إبان حاجتهم إليه ليردوا به هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها . وبالغ الروم في كتمان أسماء المواد التي يتألف منها المزيج فظل أمر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليها العرب فاذا هي مزيج : من الكبريت ، وبعض الراتنجات ، والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة ، كانوا يشدونها في مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة ، أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط فيقع على السفن فيحرقها ، وكانت هذه النار تشتعل في الماء والهواء كالنفط وتدمر ما تنصبّ عليه ، ولذا سميت أيضاً (النار البحرية) [1] .

[الزراقون] جمع زراق ومعناه رامي النفط من الزراقة أي الأنبوبة التي يزرق بها النفط .

وقد وصف أبو الحسن سعيد نار النفط على الماء فقال :

أطار النفط فوق الماء ناراً قد أصلي لتكميل الهياج
أرى شفقاً يلوح على سماء كما ذاب العقيق على الزجاج

---

(١) حقائق الأخبار عن دول البحار لاسماعيل سرهنك باشا .

ومثله أسعد بن ابراهيم بن بليطة من شعراء الأندلس قال :

والنفط مهما افترقوه فاغراً أجرى لسان النار فوق الماء

فكأنه ذهب جرى في صارم أو رجع رق في أديم سماء

[الجرخية] جمع جرخى أي رامي الجرخ - أي البندق —

[اللجام] أداة من حديد طويلة محددة الرأس ، وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لهـا الاسطام فيحتالون لطعن مراكب الأعداء باللجام فيخرقها .

[التوابيت] صناديق مفتوحة وموضوعـة في أعلا السواري يصعد إليها الرجال ، ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يستعملون قوارير النفط للاشعال ، أو جرر مملوءة بمسحوق النورة يرمون بها مراكب الأعداء فتعمي الرجال بغبارها ، وقد تلتهب ، أو يرمون عليهم قدور الصابون فتزلق أقدامهم ويسقطون في البحر .

[الستائر] قال القلقشندي : هي آلات الوقاية من الطوارئ ومافي معناها ممـا يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك .

[الكلاليب] عندمـا يلتقون بمراكب الأعداء يلقون عليها الكلاليب فيقفونها ويشدونها إليهم ثم يرمون عليها ألواحاً كالجسور

ويدخلون إليها ، ويقاتلون أصحابها ، ولمقاومة الكلاليب فؤوس ثقيلة يضربونها بها فتقطع ويبطل عملها .

ومن وسائل الدفاع عندهم : كانوا يعلقون حول السفن الحربية من الخارج جلوداً أو لبوداً مبلولة بالخل ، أو الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط . أو يخلطون البورق والنطرون أو الخطمي المعجون بالخل بالطين لمقاومة فعل النفط . وكانوا أيضاً يسدلون على المراكب قلوعاً زرقاً كيلا تظهر للأعداء من بعد .

مراسي العرب في البحار

اشتهرت بعض المرافئ على ساحل البحر الابيض المتوسط في العصور الوسطى بمواقعها الحربية أو التجارية ، وغدا هذا البحر خلال القرن العاشر بحراً عربياً ليس لأوروبا سلطة عليه . وكان لا بد لمن يريد أن يقضي فيه لنفسه أمراً من الدول أن يخطب ود العرب ، كما فعلت ناپولى وغيرها من دول اوروبا . ففي سنة ١٩٣٥ استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ، ومدينة جنوه ، وأن تفعل مثل ذلك في مدينة بيزا بين عام ١٠١١ – ١٠١٤م (١)

وإلى هذا الاستعلاء البحري أشار ابن خلدون فقال : (كان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل : ميورقة ، ومنورقة ، وسردانية ، وصقلية ، وقوصرة ، ومالطة ، واقريطش ، وقبرس وسائر ممالك الروم والافرنج)

واشهر المراسي العربية على ساحل هذا البحر هي :

---

(١) الحضارة الاسلامية : آدم متز

[انطاكية] كانت في القرن الثالث الهجري أهم ميناء تجاري في الشام وقد حصنها الخليفة المعتصم[١] ، وإنما كان يؤذيها أكبر الأذى وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرس تسمى السفالة ، وكانت تتحطم عليها معظم السفن.[٢]

[طرابلس] إن ميناء طرابلس الشام عجيب ، يحتمل الف مركب[٣] والمراكب تحط فيه ليلا ونهاراً ، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً ، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم[٤] وكانت المراكب إذا وصلتها عرضت لها الرياح البحرية ، فيشتد الموج لانكشاف المرسى بها ، ويصعب الارساء فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم ، وحبالهم ، متطوعين فيقيد المرسى ويرسي منه في أسرع وقت بغير كلفة لأحد[٥].

[صور] كانت هي الميناء الحربي الاسلامي المواجه لبوزانطه[٦] ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الافرنج ، وكانت حصينة جليلة ، يحرس ميناءها برجان تسحب بينهما سلسلة.

---

(١) ابن خرداذبه .
(٢) مروج الذهب للمسعودي
(٣) اليعقوبي
(٤) ابن حوقل
(٥) ابن حوقل
(٦) اليعقوبي .

وقال المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم : (وصور مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ؛ يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض ، تدخل فيه المراكب كل ليلة ، ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الاكراه) .

وزار ابن جبير صور يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة ، وقد وصف مرسى صور فقال : (صور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ... وذلك انها راجعة الى بابين : أحدهما في البر والآخر في البحر ، وهو يحيط بها من جهة واحدة ... وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لايدخل الداخل ، ولا يخرج الخارج ، إلا على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع . (ولعكة) مثلها في الوضع والصفة لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل إليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل)

[عكة] أما ميناء عكة فقد نقل المقدسي خبر بنائه في كتابه أحسن التقاسيم قال : (عكة مدينة حصينة على البحر ... ولم تكن على هذه الحصانة حتى زادها ابن طولون، وقد كان رأى (صور) ومنعتها واستدارة الحائط على ميناءها ، فأحب أن يتخذ (لعكة) مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك فقيل : لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان ، ثم ذُكر له جدّنا أبو بكر البنّاء ، وقيل إن كان عند أحد علم هذا فعنده ؛ فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه ، فلما صار إليه وذكر له ذلك قال : هذا أمر هين ، عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البريّ ، وخيط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت ، حتى إذا علم أنها جلست على الرمل ، تركها حولها كاملا حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور .)

[تنيس] قال ابن رسته : (تحيط بها البحر الاعظم المالح وبحيرة يأتي ماؤها من النيل ، وهي مدينة قديمة تعمل بها الثياب الرفيعة الصفاق والرقاق ، من الدبيقي والقصب ، والبرود والمخمل والوشي وأصناف

الثياب، وبها مراسي المراكب الواردة من الشام والمغرب)

[دمياط] قال ياقوت: (مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل ... ومن شمالي دمياط يصب ماء النيل الى البحر الملح في موضع يقال له الاشتوم، عرض النيل هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس لايخرج مركب الى البحر الملح ولا يدخل الا بإذن، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنيس، وعلى سورها محارس ورباطات

[الاسكندرية] مدينة تجارية على ساحل بحر الروم بناها الاسكندر المقدوني سنة ٣٣١ قبل الميلاد وكان لها شأن عظيم في جميع الأدوار التاريخية، لموقعها الجغرافي الممتاز بين الشرق والغرب، ترد اليها وتصدر عنها معظم تجارة القطر المصري، وتؤخذ المكوس عن هذه التجارة الصادرة والواردة؛ وقد وصف لنا ابن جبير ما يلاقيه المسافرون من تحري أمناء السلطان أمتعتهم عند نزولهم من المراكب في الميناء؛[1] يأتيها التجار من بلنسية، وتسكانيا، ولومبارديا وأبوليا، وأمالفي، وصقلية، وقطالونيا، واسبانيا، والمانيا، وسكسونيا والدنيمرك، وانكلترا، وفلندره، وفرنسا، ونورمنديا، وبرغنديا، وجنوه، وبيزه، وغسقونيا، وناڤار، كذلك يأتيها تجار المسلمين من الاندلس، وإفريقية، وبلاد العرب، كما يصل إليها قوم من الهند

(١) ابن جبير ص ٧-٨

والحبشة ، والنوبة ، واليمن ، والعراق ، وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الاوروبيون ، ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها[١] .

ولأهمية الاسكندرية فقد تعرضت كثيراً لغارات الاعداء وهجماتهم مما حمل أهلها على تحصينها براً ببناء الاسوار حولها ، وبحراً بنصب الابراج على مينائها واقامة المأصر بينها ، والمأصر هذا المسمى بذي السلاسل الحديد ، وقد أشار اليه القلقشندي في الجزء الثاني صحيفة ١٣٧ من صبح الاعشى[٢]

[تونس] تلي طرابلس في الأهمية

[المهدية] قال ياقوت : هذه المدينة بافريقية منسوبة الى المهدي وبينها وبين القيروان مرحلتان ، ونقل عن ابي عبيد البكري فقال : ومرسى المهدية منقور في صخر صلد يسع ثلاثين مركباً ، على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، فاذا أريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدونها كما كانت تحبيساً لها .

وأما مراسي البحر الاحمر والمحيط الهندي فأشهرها :

[عيذاب] كانت نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر وكان ميناؤها عميقاً غزير الماء ، مأموناً من الشعاب النابتة ، فكانت

---

(١) نقولا زياده في المقتطف عددي سبتمبر واكتوبر ١٩٤٣

(٢) انظر قوله في صفحة ٦٧ من هذا الكتاب

ترد إليها البضائع ، من الحبشة واليمن وزنجبار ، بطريق البحر ثم تُحمل على الابل في الصحراء مسيرة عشرين يوماً إلى أسوان أو قوص؛ (١) ومن هناك تنقل الى القاهرة في النيل ، وأهلها البجاة وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفر ويشدون على رؤوسهم عصائب ، وقد بلغت عيذاب في نهاية القرن الخامس الهجري درجة عظيمة من الازدهار وأصبحت إحدى الموانئ التي تختلف إليها المراكب من جميع البلاد. وكان حجاج مصر يسيرون عن طريق عيذاب بين سنة ٤٥٠ – ٦٦٠ هـ

[عدن] على ساحل المحيط الهندي ذات حظ وإقلاع ، ولم تأخذ شأن عيذاب إلا منذ عام ٨٢٣ هـ وكانت المركز التجاري الكبير بين إفريقية وبلاد العرب ، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ، ولهذا كان يسميها المقدسي دهليز الصين .

ويقول ابن بطوطة : (عدن مدينة كبيرة لازرع بها ولا شجر ولا ماء ... وهي شديدة الحر .. وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضاً ، وأهل عدن مابين تجار وحمالين ، وصيادين للسمك ، وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لايشاركه فيه غيره لسعة مابين يديه من الاموال ، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة)

---

(١) قوص : فرضة التجار اليمنيين والحبشيين ، يجري فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ، تنقل بضاعات المسلمين الى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة الى مراكب المسلمين .

[هُرمز] قال ابن بطوطة : هي على ساحل البحر ومرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقين وفارس ، وخراسان .

[البصرة] تقع على نهر شط العرب بينها وبين البحر مرحلتان [١] وإن هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة فيها مدينة صغيرة ، ذات حصن صغير وهي مدينة (عبادان) و كان فيها رباطات و عُبّاد صالحون، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء، غير إن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق؛ [٢] وكانت رسوم المراكب تجبى عندها وكان بها حامية لمكافحة القرصان .

[ماسّة] قرية على البحر تحمل إليها التجارات وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول، وفيه الرباط على ساحل البحر ، ويلقى البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطية التي تعمل بالأُلّة والتي يركب فيها الى الصين [٣] .

[منجرور] أكبر خور في بلاد الميلبار، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن. [٤]

[سيراف] هي الفرضة التي تمر بها صادرات فارس وواردتها ، [٥]

---

(١) الاصطخري .
(٢) الاصطخري .
(٣) ابن رسته.
(٤) ابن بطوطة .
(٥) الاصطخري

وكانت على الخليج الفارسي ، تقصدها المراكب من جميع البلاد ؛ وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تحمل على المراكب بسيراف وكان أهلها أغنى تجار فارس كلها وهم من عجم الفرس أشراف وفيهم طائفة من العرب .

[باب الأبواب] على بحر طبرستان وهو بحر الخزر ، ويقال لها الباب غير مضاف ، والباب والأبواب وهو الدربند ، قال الاصطخري : وأما باب الابواب فانها مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها ، وفي وسطها مرسى السفن ، وهذا المرسى من البحر ، قد بُني على حافتي البحر سدّان ، وجعل المدخل ملتويا ، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة فلا مخرج للمركب ولا مدخل الا بإذن ، وهذان السدان من حجر ورصاص .

وقال ابن حوقل : ومدينة باب الابواب مدينة على بحر الخزر في وسطها مرسى للسفن ، وفي هذا المرسى الخارج من البحر إليها بناء قديم بني كالسد ، بين جبلين مطلين على ماء هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر وفي هذا السد باب مغلق على الماء ، قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على نفس الماء ، والماء من تحته ، وللسفن مدخل مقلوب من ناحية بابه ، وعلى فم المدخل الذي تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة كالتي بصور وبيروت بالشام ، وعلى خليج القسطنطينية ، وعليها قفل لمن ينظر في أمر البحر ، فلا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر صاحب القفل والسد من صخر ورصاص .

المناور

أنشأ العرب في كل مرفأ ترسو به السفن منارة تدعى (الخشب) ويذكر جغرافيو العرب أن على بعد ستة أميال من البصرة ، تجاه البحر موضعاً يعرف بالخشبات ؛ فيه عمد من الخشب منصوبة في الماء ، قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور ، ويوقد المركب بالليل ، لتهتدي به السفن ، وتستدل به على مدخل دجلة ، وكان هذا الموضع مخوفاً إذا ضلت فيه السفينة ، خيف انكسارها لرقة الماء[1] وذكر المسعودي وهو من رجال القرن الرابع ، إنه كان ثمّ ثلاث خشبات كالكراسي عليها أناس يوقدون النار بالليل ، في جوف البحر ، خوفاً على المراكب الواردة من عمان ، وسيراف ، وغيرها أن تقع في تلك الجزيرة فتعطب فلا يكون لها خلاص[2] .

أما ناصر خسرو وهو من رجال القرن الخامس للهجرة فيقول : إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة بحيث تؤلف على الارض قاعدة مربعة واسعة ، ثم تضيق في أعلاها ، وهي تعلو سطح البحر بخمسين متراً وفي أعلاها حجرة مربعة للناظور .[3]

---

(١) الاصطخري والمقدسي

(٢) مروج الذهب

(٣) رحلة ناصر خسرو

ووصف لنا ابن جبير منار الاسكندرية[1] فقال: (ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل، على يدي من سخر لذلك آية للمتوكلين، وهداية للمسافرين؛ لولاه ما اهتدى في البحر الى بر الاسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا، ومبناه في غاية العتاقه والوثاقة طولا وعرضا؛ يزاحم الجو سموا وارتفاعا يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع، ذرعنا أحد جوانبه الأربع فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا.

وجاء في كتاب حقائق الاخبار: أن منارة الاسكندرية كانت مشيدة بجزيرة صغيرة، تدعى (فاروس) قريبة من الاسكندرية وصلت بالمدينة سنة ٢٨٥ ق م بجسر من الاحجار وكانت من المرمر الابيض ارتفاعها ثلثمائة ذراع (١٨٥ متر) وكان لها عدة طبقات تأخذ في الصغر كلما ارتفعت، والذي شيدها هو (سوسطرات) المهندس الشهير بأمر (بطليموس فيلادلف) وكانت تقاد النيران في رأس تلك المنارة

---

(١) قال صاحب المعجب ص ٢٣١ (... وكانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلا ونهاراً، وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جداً، فاذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس الى الاسكندرية او من الاسكندرية الى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم؛ لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد الى ان خربت الاعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها ايام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب وذلك في حدود ٤٤٠ هـ

مدة الليل لهداية السفن ... وقد زعزعت الزلازل أبنيتها عدة مرات حتى ان ارتفاعها لم يكن الا نحو (٢٣ متراً في سنة ١١٨٢م) ثم سقطت تماماً سنة (١٣٠٣م) . وفي عهد أحمد ابن طولون بني في أعلاها قبة من خشب فهدمتها الرياح ، وبنى الملك الكامل صاحب مصر مكانها لما تهدمت مسجداً ...

وكان السلطان محمد بن عبد الرحمن من سلاطين سجلماسة أول من أمر ببناء منارات على ساحل البحر قرب طنجة سنة ١٢٩٠ هـ

ديوان الأسطول

أول من دوّن الدواوين في الاسلام الخليفة عمر بن الخطاب ، وضع ديوانًا للجند، وفرض لهم أعطياتهم ، لأنه لم ينصرف الى الناحية البحرية كما تقدم معنا ،فظلت هذه الثلمة في الجندية العربية مفتوحة حتى ايام بني مروان ففي عهدهم اتسع ديوان الجند ، وصار يقيد فيه اسماء الجنود الذين قد استوفوا شروط قبولهم في الجندية وزادت رواتبهم عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم نقصت في ايام بني العباس وأغلب الظن أن ديوان الجند في زمن الامويين قد اتسع لرجال البحرية والاسطول .

وبلغت نفقات الاسطول يومياً في ايام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ (١٦ ٢/٣) ديناراً ثمن أرزاق الملاحين في الطيارات والشذات والحراقات وغيرها من السفن؛ و (٤) دنانير ثمن النفط والمشاقه للنفاطات والمشاعل واجرة الرجال لخدمتها .

وكان للفاطميين ديوان خاص للاسطول أطلقوا عليه اسم ديوان العمائر . وقد بلغت الجنود البحرية في أيامهم خمسة آلاف، ولهم رواتب معينة كان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير .

نقل المقريزي عن ابن الطوير : ان الخدمة في ديوان الجهاد ويقال

له ديوان العمائر . وكان محله بصناعة الانشاء بمصر للاسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والاحطاب وغيرهـا ، وكانت تزيد على خمسين عشارياً ، ويليها عشرون دياساً ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها ، ولكل منها رئيس ونواتي لايبرحون ينفق فيهم مال هـذا الديوان ، وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الاعمال المميزة فهي تجري لهم ، وينفق في رؤوسائها ورجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه . فاذا صرف عاد فيه وخرج المتولي الجديد في العشاري المرسي في الصناعة ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه ، وبالانفاق فيه للمشارفين بالاعمال عشاريات دون هذه . وفي هذا الديوان برسم خدمة ما يجري في الاساطيل نائبان من قبل مقدم الاسطول ، وفيه من الحواصيل لعمارة المراكب شيء من بيت المال ما يسد خلله ...

وقال : ... وكانت جريدة قواد الاسطول أكثر من خمسة آلاف مدونة من عشرة أعيان ، تصل جامكية كل منهم الى عشرين ديناراً ، ثم الى خمسة عشر ، ثم الى عشرة دنانير ، ثم الى ثمانية ، ثم الى دينارين وهي أقلها . ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار وحواليه . ويعين من هؤلاء القواد العشرة ، من يقع الاجماع عليه لرياسة الاسطول المتوجه للغزو ، فيكون معه الفانوس ، وكلهم يهتدون به ويقلعون باقلاعه

ويرسون بارسائه ، ويقدم على الاسطول أمير كبير من أعيان الامراء وأقواهم جانباً ، ويتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير ؛ فاذا اجتمعت العدة المغلقة للمراكب المطلوبة أعلم المقدم بذلك الوزير فطالع الخليفة بالحال ؛ وقرر يوم للنفقة ، فحضر الوزير بالاستدعاء على العادة فيجلس الخليفة على هيئة في مجلس ويجلس الوزير في مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش : وهما المستوفي ، وهو أميرها ويجلس داخل عتبة المجلس وهذه رتبة له مميزة ، وكاتب الجيش الأصل ، ويجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة ، ولا يخلو المستوفي أن يكون عدلا أو من أعيان الكتاب المسلمين ، وأما كاتب الجيش فيهودي في الاغلب ، ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ويحضر الوزانون ببيت المال لذلك ، فاذا تهيأ الانفاق ، أدخل القابضون مائة مائة ، ويقفون في آخر الوقوف بين يدي الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت في أوراق استدعائهم بين يدي الخليفة ، ويستدعي مستوفي الجيش من تلك الاوراق واحداً واحداً ، فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذي هو فيه الى الخالي ، فاذا تكمل عشرة رجال وزن الوزانون لهم النفقة ، وكانت لكل واحد خمسة دنانير ، صرف كل دينار ستة وثلاثون درهماً فيتسلمها النقيب وتكتب بيده وباسمه ، وتمضي النفقة كذلك الى آخرها . . .

وقال : . . . فلما كان زوال الدولة الفاطمية ، على يد السلطان

صلاح الدين يوسف بن أيوب اعتنى أيضاً بأمر الاسطول ، وأفرد له ديواناً عرف بديوان الأسطول ، وعين لهذا الديوان : الفيوم بأعمالها والحبس الجيوشي في البرين الشرقي والغربي .... وغيرها من الاقطاعات .

ثم افرد لديوان الاسطول مع ما ذكر الزكاة التي كانت تجبى بمصر . وبلغت في سنة زيادة على خمسين الف دينار ... وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب فأقام في مباشرته وعمالته صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر ، وتقرر ديوان الاسطول الذي ينفق في رجاله نصف وربع دينار ، بعد ما كان نصف ثمن دينار ، فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الاسطول قليلا ، ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره الا عند الحاجة إليه ...

ثم لما انقرضت دولة بني أيوب وتملك الاتراك المماليك مصر ، أهملوا أمر الاسطول الى ان كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، فنظر في أمر الشواني الحربية ، واستدعى برجال الاسطول ، وكان الامراء قد استعملوهم في الحراريق وغيرها وندبهم للسفر ، وأمر الشواني ، وقطع الاخشاب لعمارتها واقامتها على ما كانت عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واحترز على

الخراج ، ومنع النـاس التصرف في أعواد العمل ، وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الاسكندرية ، ودمياط . وصار ينزل بنفسه الى الصناعة بمصر ويرتب من عمل الشواني ومصالحها ، واستدعى بشواني الثغور الى مصر فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة ...

قال ابن مماتي في كلامه على الديوان : (والاسطول هو جهة إنفاق وربما حصل منه ما يستخرج وينفق ، وأسماء المراكب الجـارية فيه طريدة ، وحماله ، وشلندي ، وشيني ، وحراقة ، وأعوادي ، وبركوش ؛ ولـكل من هذه المراكب ضريبة ما يحتاج اليه من عمـارة وقواد ، ورماة ، وجـذافين ، وزاد . والامر فيه على مـا يحقق بمقتضى كل وقت .

وللديوان مراكب تسمى الملوحة . قال ابن مماتي : (المراكب الملوحة مراكب جارية في ملك الديوان ، يضمنها البحريون لمـدة معلومة ، بأجرة مفهومة ، فاذا احتاجت الى عمـارة اعتدلهم عن مدة العطلة بأجرة نظيرها من مدة العمل ، وسنتها ثلاثة عشر شهراً ...

وذكر قدامة (انه كان يجتمع الى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية ، مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المـائة والغزاة إذا غزوا عليها في البحر ، كوتب أصحاب مصر والشام في

العمل على ذلك والتأهب له ، ليجتمع بجزيرة قبرس ، ويسمى ما يجتمع منها (الاسطول) كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر (المعسكر) والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار .)

اهراء الأسطول

كان من عادتهم إذا جهزوا أسطولا للغزو أن يوسقوه بما يحتاجه الملاحون من الميرة والزاد ، قال ابن جبير عند كلامه عن رحلة له في البحر: (وقل الزاد بأيدي الناس ، لكن هم من هذا المركب بمنة الله تعالى في مدينة جامعة للمرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه والأدم ، كالرمان ، والسفرجل ، والبطيخ ، السندي ، والكمثرى ، والشاه بلوط ، والجوز ، والحمص ، والباقلانيا مطبوخاً ، والبصل ، والثوم ، والتين ، والجبن ، والحوت ، وغير ذلك مما يطول ذكره عاينا جميع ذلك يباع ...)

وكان للخلفاء الفاطميين في مصر أماكن تخزن بها الغلال والاتبان ولا تفتح إلا عند الضرورة ، وتسمى الاهراء [1] ؛ قال المقريزي في المواعظ والاعتبار : وكان لها الحماة من الامراء والمشارفين من العدول والمراكب واصلة إليها بأصناف الغلات الى ساحل مصر ، وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك اليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية ... ومن الاهراء تخرج جرايات

---

(١) الأهراء بالفتح جمع هرى بالضم ، وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان . قال ابن مماتي : (الاهراء ـ الحال فيها معلوم غير محتاج الى زيادة بيان ولها مستخدمون . ومما يجب عليهم إضافة وفر الكيل مع أخذهم بالانصاف فيه ..

رجال الاسطول ، وجرايات السودان ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة لأخباز الرسل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الاسطول .

وكان في زمن القلقشندي وظيفة تسمى : (نظر الاهراء بمصر بالصناعة) وهي شونة الغلال السلطانية التي يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصل إليها من النواحي من الغلال وغيرها ، وما يصرف منها على الاصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية وغير ذلك .)

التجارة البحرية — والمكوس

منذ أن خفقت أعلام العرب المسلمين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط من انطاكية إلى طنجة ، واتسعت فتوحهم من عيذاب الى كاليكوت ، سيطروا على أهم وأعظم طرق التجارة في العالم ، وصارت القوافل تحمل متاجر الهند ، وسلع الصين عبر بلاد فارس والعراق والشام وشمال افريقية الى الأندلس ، وذلك في القرنين السابع والثامن ميلادي ، وغدت مرافئ العدوة الجنوبية للبحر الابيض مرافئ تجارية رئيسية .

وفي القرن العاشر قامت الحروب الصليبية ، واتجهت أنظار البنادقة الى سواحل سورية ، فسارت التجارة في إثر الحرب ، وهرع التاجر الايطالي في أعقاب الفارس الفرنجي ، وأسس البنادقة لهم علاقات تجارية في صور وعكاء ، وتحولت الطريق البحرية عن بيزنطة الى البلاد الشامية ، مما جعل البيزنطيين يزاحمون العرب على هذا البحر ويضعون العراقيل في طريق تجارتهم كالغزو ، والقرصنة ، والمكس الباهظ .

وكان مايشتريه الشرقيون من الافرنج الاوروبيين : المنسوجات ، والخيوط الذهبية ، والقصدير ، والمرجان ، والكهرمان ؛ وكانت

سورية تصدر إلى أوروبا : الجواهر ، والمسك ، والتمر ، والبهارات وحجر الشب ، والزجاج المصنوع في انطاكية وصور وصيدا ، والحرير . ولم تقتصر هذه التجارة على منسوجات سورية وبضائعها بل شملت كذلك منتجات الهند والصين وجزائر البهار وبضائعها .

وانتعشت هذه التجارة زمن الدولة اللاتينية ، التي قامت في سورية أيام الحروب الصليبية ، فانتقل بواسطتها حاصلات ونباتات جديدة من شرقي البحر الأبيض الى غربه : كالسمسم ، والخروب ، والذرة والارز ، والليمون ، والبطيخ ، والمشمش ، والثوم ، وانتشرت صناعات وأزياء جديدة في الغرب (١) وهذا الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق التجارة البحرية أورث الغرب كلمات كثيرة واصطلاحات عديدة بالتجارة مثل : Tariff, Dinar, Admiral, Arsenal وغيرها كثير .

وكان التجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروڤانس بفرنسا في القرن الثالث الهجري يسميهم المسلمون مجرّد وهو (تجار البحر) (٢) وقد وصف لنا ابن خرداذبه مسالكهم ، ويسميهم اليهود الراذنيّة قال : (. . . وهم اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية ، والصقلبية ، وإنهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم ، والجواري ، والغلمان ،

---

(١) تراث الاسلام .

(٢) الحضارة الاسلامية : آدم متز .

والديباج، وجلود الخز، والفراء، والسمور، والسيوف؛ ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدّة، ثم يمضون الى السند والهند، والصين، فيحملون من الصين المسك، والعود، والكافور، والدارصيني، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي، حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي، فربما عدلوا في تجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وإن شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية، ثم يركبون في الفرات الى بغداد، ثم يركبون في دجلة الى الأبله، ومن الأبله الى عُمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض).

وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر ميلادي ازدهرت التجارة البحرية في عصر المماليك، وكانت الطريق البحرية الممتدة من الخليج الفارسي والبصرة والشام ومن البحر الاحمر الى مصر بيدهم وهم المسيطرون عليها، ونشطت المدن الايطالية كالبندقية، وجنوه وبيزه، والمدن الفرنسية كرسيليا الى الاتجار مع هذه الدولة

التجارية ، وكان لهم قناصل وفنادق في أشهر الثغور البحرية من انطاكية الى الاسكندرية .

وأخذت هذه الدولة منذ عهد الملك الظاهر بيبرس تهتم بشؤون التجارة مع الشرق الاقصى ، وانتشر صيتها في البحار البعيدة فارسل ملك سيلان رسله الى السلطان قلاوون يعرض عليه حلفاً تجاريا ، وارسل معهم كتاباً يتضمن سلاماً ومحبة .

وظلت دولة المماليك مسيطرة على التجارة البحرية الى اواخر القرن الخامس عشر حيث نجح البرتغاليون في محاولاتهم للوصول الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٢ - ١٤٩٦ م فقضوا بذلك على نفوذ مصر والبندقية الاقتصادي ؛ أضف الى هذا استيلاء العثمانيين على دولة المماليك في سورية ومصر ، فقضي عندئذ القضاء الأخير على التجارة البحرية العربية في البحر الابيض المتوسط .

أما تاريخ التجارة البحرية العربية في الشرق الأقصى فمضطرب ، والمعروف أن رئيس الجالية الاسلامية في كنتون في أوائل القرن التاسع ميلادي كان مسلماً يعينه الامبراطور وكان هذا الرئيس يقضي بين أفراد الجالية باحكام الشريعة ، وإذا كانت الجمعة أو العيد خطب في المسلمين ودعا في خطبته لسلطان المسلمين .

وفي مدة ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب الى

بحار الصين [١] كما كانت مراكب الصين تختلف الى عمان ، وسيراف ، والابله ، والبصرة . وكانت هذه المراكب الصينية يملكها المسلمون وتسير بين بلادهم وبين الصين [٢] .

وكانت معظم هذه التجارة البحرية لجماعة من السيرافيين فقد كانوا يحملون الجواهر ، والعاج ، والابنوس ، والفلفل ، والصندل ، والعود العنبر ، والكافور ، وسائر الأطياب ، والعقاقير ، والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقية ، وجزائر الهند ، واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد [٣] .

ومما يروى ان الرشيد كان يرى فتح البحر عند السويس حتى يقرب المجال من المغرب الى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق ويحمل تجارة سواحل الروم والشام الى الشرق ، فثناه عن هذا الأمر وخوفه فيه جعفر فقال له : يا أمير المؤمنين إن خرق السويس خرق في الاسلام ،

---

(١) روى لنا ابو زيد البلخي في حدود سنة ٨٨٠ م رحلة سليمان التاجر السيرافي الى بحار الهند والصين ورحلة ابن وهاب الذي جاب سواحل هذه البحار وتفحص احوال أهلها وقصد قاعدة المملكة الصينية فدخلها وهي فيما رواه على مسيرة شهرين من البحر ، وألف العرب أقاصيص عن هذه الرحلات في الاوقيانوس وتعددت أساطيرهم حتى صارت اشبه بقصص الف ليلة وليلة . وكتاب عجائب الهند لبرزك بن شهر يار وغيره من المؤلفات اكبر شاهد على رسوخ قدم العرب في هذا المضمار .

(٢) الحضارة الاسلامية آدم متز

(٣) الاصطخرى والمسعودي

ولو انك وجدته مخروقاً بأيدي الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده ، لأن مصالح التجارة لا تقضي على الاسلام بتضييع الفتوح التي دانت له ببذل الدماء[١] .

وكانت (كَلَه) حوالي عام ٣٣٢ هـ هي النصف من طريق الهند أو نحو ذلك ، وإليها تنتهي مراكب أهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت[٢] وفي كَلَه أيضاً كان التاجر السمرقندي ينزل من المراكب الآتية من عمان ويركب في البحر في مراكب الصين الى خانقو (أي كانتون الحديثة)[٣]

يقول أحد كتاب الصين : إن مملكة العرب لا يفوتها بلد آخر من البلدان الأجنبية في كثرة ما يدخلها من البضائع المتنوعة الغالية ويليها في ذلك جاوه وسومطره[٤] وكانت الملاحة في هذه البحار الشاسعة صعبة شاقة لاختلاف الرياح ، وتنوع الأقاليم وتعدد المجاري ولذلك كانت طرق التجارة وقفاً على ربابنة العرب من بلاد ملندي والشحر ، وعمان ، وسيراف ، معلومة عندهم مجهولة عند غيرهم من الأمم ، مقصورة على افراد مخصوصين لا يعلّمون قواعدها إلا الى اولادهم

---

(١) حضارة الاسلام في دار السلام جميل نخله المدور ص ١١٧

(٢) المسعودي

(٣) الحضارة الاسلامية

(٤) الحضارة الاسلامية

خشية تسرب الفرنج الى هذه البحار ومزاحمتهم اياهم على تجارتهم التي كانت مصدر ثرائهم وغنى الدولة العربية .

وورد في كتاب عجائب الهند : (لما كانت هذه السفن خلواً من كل آلة يستعان بها في الملاحة كانت الرحلة محفوفة بالمعاطب ، فكان الناس يتعجبون أشد العجب إذا عمل الربان هذه الرحلة سبع سنوات ، وكان المسافر اذا وصل الى الصين عُد ذلك عجيباً . أما رجوعه الى بلاده فكان يعتبر كالمستحيل ، ولهذا فلا عجب أن نسمع ان الرجل الذي في أعلى السارية اذا رأى أول علامات ارض الوطن نادى قائلا رحم الله كل من قال : الله اكبر ، فعند ذلك يجيبه جميع من في المركب قائلين : الله اكبر ، ويهنئ بعضهم بعضاً ويبكون لما يكون قد هجم عليهم من السرور .)

وعلى الاجمال فان اشهر عناصر تجارة بحر المحيط الهندي في القرنين الثالث والرابع الهجري : الحديد ويأتون به من بلاد كرمان ، والنحاس من ارض عمان ، وأنواع الطيب والأفاويه ، والعنبر من بلاد الزنج وساحل الشحر من ارض العرب ، والساج والخشب المعروف بالرادسجي والقناوالخيزران ، والكافور القيصوري من جزيرة سرنديب ، والنوشادر من الصين ، والجواهر ، والعود ، وانواع الطيب من الهند .

المكوس :

و كانت هذه التجارة البحرية مصدر ثروة كبيرة لدول الشرق العربي ، يأخذون عنها المكوس ويجبون عليها الضرائب ، واكبر الظن أن الدولة الأموية كانت تجبي أعشار السفن التي تمر بالمياه العربية وإن لم ترو لنا المصادر شيئاً عن ذلك . وكذلك الحال في دولة بني العباس لاتساع التجارة في أيامهم لاسيما بين العراق وسائر أقطار الشرق الأقصى كالهند والصين وغيرها ، وسواحل افريقية الشرقية . الا ان بعض المصادر [1] تذكر ان : تاجراً من تجار البصرة يسمى حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بلاد الهند والصين فبلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها مئة الف دينار في العام . وكان ضمان أعشار المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠،٠٠٠ دينار و بلغت جباية الدولة العباسية سنة ٣٠٦ في زمن الخليفة المقتدر عن مراكب البصرة وحدها ٢٢،٥٧٥ دينار و ٢٥٨،٠٤٠ ديناراً عن ضياع الامراء مع مال المراكب بسيراف . وبلغت المكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بسيراف حوالي اواخر القرن الثالث للهجرة نحواً من ٢٥٣٠ الف دينار في كل عام [2]

وكان من انواع المكوس التي تؤخذ في زمن الدولة الفاطمية في

---

(١) ذيل ابن حوقل

(٢) البلخي

مصر ما كان يؤخذ في الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ... وكانت المكوس السلطانية بانواعها تبلغ زمن المقريزي بضعاً وسبعين الف دينار . وظلت المكوس تجبى على التجارة[1] حتى زمن السلطان صلاح الدين فمحاها ؛ قال ابن جبير : ومن آثاره – اي صلاح الدين – التي أبقاها ذكراً جميلا للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين ...

ووصف لنا ابن جبير في القرن السادس الهجري ما يلاقيه المسافرون من عنت الموظفين في جمع الزكاة على السلع في ثغر الاسكندرية قال : فمن أول ماشاهدنا فيها يوم نزولنا فيها أن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ماجلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت اسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل ، كل واحد عما لديه من سلع أو ناص ، ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك ، أو مالم يحل ، وكان اكثرهم متشخصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا . واستنزل احمد بن حسان منالبسأل

---

(١) أي تجارة الحجاج الواردين من مكة .

عن أنباء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله ، فخلي سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم؛ وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم و يحمل جميع ما انزلوه الى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً ، واحضر ما لكل واحد من الاسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الاسباب ما دق منها وما جل واختلط بعضهم ببعض ، وأدخلت الأيدي أوساطهم بحثاً عماعسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك ، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ؟ وفي اثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم اطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك ، وهذه لامحالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وائثار الرفق ، لازال ذلك . وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستردوا الزكاة على أجمل الوجوه ، وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة التي هي من نتائج عمال الدواوين .

وكان في أيام ابن مماتي يضعون مكساً على التجار يسمى (الخمس) قال : (والخمس عبارة عما يؤخذ على المستأذن من تجار الروم الواردين

على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما يستخرج عن ماقيمته مائة دينار ما ينوف عن خمسة و ثلاثين ديناراً ، وربما انحط عن العشرين ديناراً ، ويسمى كلاهما خمساً ، ومن أجناس الروم من يستأدى منهم العشر ، إلا انه لما كان الخمس اكثر كانت النسبة إليه أشهر ، ولذلك ضرائب مستقرة ، وعوائد مستمرة وأوضاع مألوفة ، وطرائق فيما بين المستخدمين فيه معروفة ...)

وحدثنا ابن جبير عما يؤخذ في مرفأ عيذاب من المكوس قال : (وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وهي في صحراء لانبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج وتحت مرفق كثير ، لاسيما مع الحجاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالاضافة الى الوظائف المكوسية ، والتي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفع صلاح الدين لها ، ولهم أيضاً من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم ، وهي المراكب ، فيجتمع لهم في ذلك مال كثير في حملهم الى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة ، وما من أهلها من ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبات فهي تعود عليهم برزق واسع)

أما عادتهم في شواطئ الهند فقد قال بن بطوطة : (إن كل مركب يمر ببلد فلا بد من ارسائه بها ، واعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر اي المرسى .

وأما عادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر ، أن يصعد إليه صاحب البحر وكتابه ، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضاً ، وقابلوا ما كتبوه باشخاص الناس ، فان فقدوا أحداً ممن قيدوه طالبوا صاحب الجنك به ، فاما أن يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، وإلا أخذ فيه ، فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلاً بجميع مافيه من السلع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم ، فإن عثروا على سلعة قد كتمت[1] عنهم عاد الجنك بجميع مافيه مالاً للمخزن . وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين .

وفي زمن القلقشندي ضريبة تسمى صادر الفرنج مفروضة على تجار

---

(١) كان من عادة اصحاب المراكب والتجار ان يكتموا بعض ما يحملونه من البضائع عن العشارين حتى لا يدفعوا عليه مكساً ، قال صاحب كتاب المسالك والممالك: أفضل المسك الصيني ما يؤتى به من خانقو وهي المدينة العظمى التي هي مرقاة الصين التي ترسي بها مراكب تجار المسلمين ، ثم يحمل في البحر الى الزقاق فاذا قرب من بلد الأبلّه ارتفعت رائحته فلا يمكن التجار أن يستروه من العشّارين فاذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الفرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم ، وكان مقدارها خمس قيمة البضائع التي يحملونها .

وكان للصليبيين في الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، وبعد المعاهدات التي عقدت بين سلطان مصر والشام قلاوون وابنه خليل كثر مجيء البنادقة ، والجنوية الى ساحل الشام في التجارة ، وتكاثر — كما قال صالح بن يحيى — حضور مراكب الفرنج ، وكانت تؤخذ مراكب الصادرات والواردات ببيروت ، وهي جملة مستكثرة وكان على باب الميناء دواوين ، وعامل ، ومشارف ، وشاد ، يوليهم نائب دمشق والمتوفر على المرتبات يحمل الى دمشق . ولم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب [1]

---

(١) خطط الشام للعلامة الكرد علي .

قوانين الملاحة، الحروب البحرية

كان لربابنة السفن ورؤسائها قوانين ونظم ، تُلزمهم بها عاداتهم البحرية أو مشارفو المرافئ . و كانت لهم سياسة خاصة في ترتيب المراكب ووسقها ، شرحها لنا احمد بن ماجد من رجال القرن الخامس عشر الميلادي وأشهر ربابنة المحيط الهندي ، قال: (تأمل في السفينة وهي فوق الارض و اكتب جميع خللها ، وقليل في زماننا من يفعل ذلك في الناس ... وإذا ركبت فيها انصب عوداً وفيه خرقة ... لتعرف الريح به من أي خن . وجلّس الحقة في مكانها ، وتفقد كل التفقد أول في نصب الحقة ، لأن من المراكب ما يكون نجارته خللاً ، فيعدي بك عن مجراك ، فاستدرك الأمر بأوله ، وتأمل الجاه بالليل وحطه في مكان يوافق المكان الذي حكمت عليه بالحقة بالنهار ، حتى لا يكون بالنهار مجرى والليل مجرى ، ويطول الطريق ، فحكّم جميع ذلك أول سفرك فما تنفع الندامة آخر السفر ونتخات القبيحة ، وتفقد جميع الركاب والعسكر ، وتأمل نهوضهم لتكون عارفاً بهم عند الشر ، واعمل خلاصك واسمع جميع أقوالهم وخذ مليحها ودع قبيحها و كن حازماً قوياً في قولك لين الطبيعة ، ولا تصحب من لا يطيعك فيما يعنيك ، فلم تجد لك في الشدائد شريكاً إلا الأسرار ، و كن

شجاعاً ذا بأس، قليل الغفلة كثير الهمة كثير الصبر والاحتمال ، تقياً نقياً لا تظلم أحداً لأحد . وتأمل جميع الآلات خصوصاً في السكان في كل حين وساعة ، وتأمل بحسن النبأ المستقبل ، لا يغمك التعب الذي أنت فيه فانه منسي ، ولا تنام إلا بقدر ما يدفع عنك السنة والسهر ، وعندما ترقد لا تخلي المسكن وحده وحارب النوم الحرب الكلّي ، ولا ترى خللاً في السفينة وتهملها إلى وقت آخر ، إلا عند الضرورة أشد مما أنت فيها ، وجوّد الموسم ، واختصر الشحنة ، واحسب حساب الحازمين العارفين الخير والشر . فان قصرت في شيء من ذلك فلا تلومنّ إلا نفسك ، فإن دركك أعظم درك من جميع من ركب البحر ..)

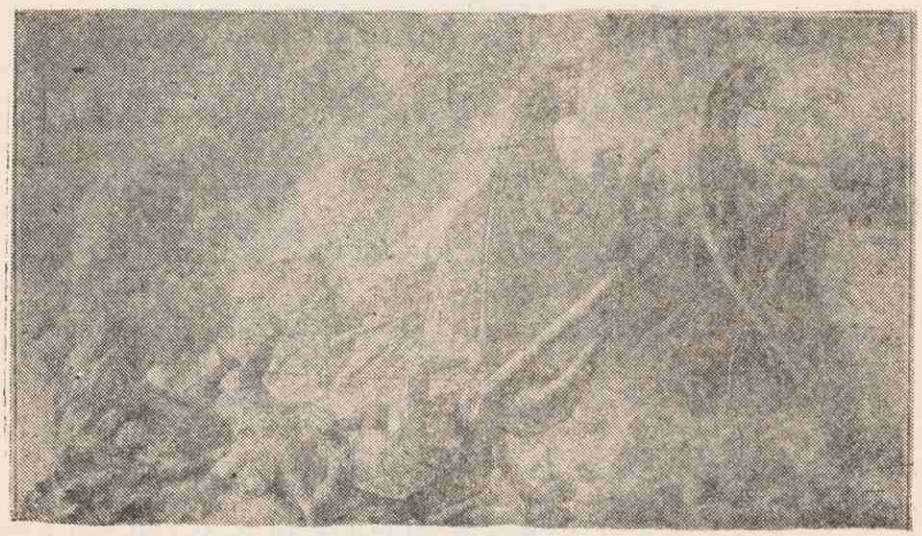

موقعة بحرية بين العرب والروم

وكان ملاحو (مالقا) المسلمون ، في أواخر القرن الثالث عشر على غاية من المهارة بالملاحة وشؤونها في تلك البحار . وكانوا يطلقون كلمة (معلم) على ربان السفينة . وكان لملكهم السلطان محمود شاه السلطة المطلقة على البحار ، كما كانت له هذه السلطة نفسها في داخل مملكته ، وقد أصدر قانوناً يحول دون المنازعات ، والمنافسات التي تقع بين الملاحين والربابنة في مياه المحيط الهندي ، وكان هذا القانون يحتم على المعلم الذي يضل مركبه وينكسر من جراء اهماله وتقصيره أن ينتحر إن لم تتداركه عناية الله . وإذا أصابه حادث أثناء سفره فعند ما يعود إلى وطنه ويلقي مرساته يُحسن إلى الفقراء ويتصدق على المساكين . ويجب عليه أن يلاحظ في البر والبحر : الرياح والصخور الناتئة والتيارات ، ومسير القمر والنجوم ، وأقسام السنة ، والرياح الهندية ، والخلجان والشواطئ ، والرؤوس والجزر ، وسلاسل الاشجار والمضايق ، والشواطىء الصحراوية ، والجبال والهضاب ، فيجب أن يعرف دقائق هذه الأمور ليكون المركب بأمن من الأخطار في البحر كما لو كان على البر ، وليكون المعلم معصوماً من الخطأ ، ولا ينسى الاستعانة بالله ورسوله ليكون محفوظاً من كل خطر . المعلم كالإمام ، تلك إرادة القانون ؛ وإذا اراد أن يترك السفينة في أي مكان كان ، فلا يستطيع ذلك كما تقضي التقاليد .

وكان من وظائف المحتسب في تلك العصور مراقبة المراكب قبل شحنها ووسقها ، وله أن يتصدى لربابنتها ورؤسائها ، قال المقريزي : المحتسب له نواب يلزمون رؤساء المراكب ان لا يحملوا أكثر من وسق السلامة .

وجاء في معالم القربة في أحكام الحسبة لابن الأخوة من رجال القرن الثامن الهجري : (يؤخذ على أصحاب السفن والمراكب ألا يحملوها فوق العادة خوف الغرق ، وكذلك يمنعهم من السير وقت هبوب الرياح واشتدادها ، وإذا حملوا فيها النسوان مع الرجال حجبوا بينهما بحائل) .

أما الحروب البحرية بين السفن ، فكان لها قوانين في دولة المماليك البرجية والبحرية في مصر منها : أنه اذا كانت الحرب بين الشواني وبين البطس والمسطحات ، فانهم لا يأتون بالشواني ولا بالمراكب الصغيرة خلف البطس والمسطحات لئلا تغرق في واديها ، ولا يأتون بها من جانبها ، فانها لا يمكنها الالتصاق بها ، بل تقابلها عن بعد وتشطحها بالفأس الذي يقال له اللجام ، فيدخل عند الحرب في اسطام المركب وهي الخشبة التي في مقدم الشيني . وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلا ، ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب ويدخل الماء فيه وإذا كانت الحرب بين الشواني وبعضها تقرب الشيني من الشيني ، فتوقفه ثم يطرح الألواح بينها كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون .

وكانت المراكب الكبار ، اذا سكنت الريح عنها ، جذبتها الشواني إلى موضع القتال . وكان الأصل عندهم في قتال البحر هو معرفة الرياح ، فكانوا يحركون المراكب بالأرجل حتى يتقدم مركب خصمه أو يعلو عليها فوق مهب الريح .

وكان على والي حرب البحر إذا خرج للقتال أن يستجيد المراكب ويستجدّها ويكثر تقويتها وادخار آلاتها ، حتى اذا تلف شيء من ذلك وجد ما يخلفه ، ويحتاط في تغييرها وإحكام ما يلاقي الماء منها فإنه الأصل الذي يعوّل عليه ، ويتخير القواد والرؤساء العارفين بمسالك البحر ومراسيه ، وعلامات الريح ، وتغييرات الأنواء والحركات البحرية من المد والجزر ، وكان من واجباته وقت الحرب أن لا يهجم على المراسي لئلا تكون مراكب العدو بها كامنة ، ولا يتقدم إلى البر إلا بعد المعرفة ، والاحتراز من الأحجار والعشاب والأحارش التي تتكسر عليها المراكب . ويكثر من الماء والزاد ليستظهر على طول المدة إن دعت الحاجة إليه كادخار أصحاب الصحون ، وإن كان القتال قرب البر والسواحل والجزائر فيجعل عيونه وطلائعه على الجبال فيتأهب لذلك ويفعل مقدم المركب من تأليفه أصحابه ، ووعدهم واستمالتهم وتحريضهم قبل الحرب كما يفعل والي البر وأبلغ من ذلك . لأن هذا لا منجى منه ولا مخلص الا بصدق القتال إما كاسر أو مكسور . . .

إن الحرب في البحر شديدة صعبة عسرة لأمور منها : إن المجال ضيق ولا تكاد السهام والأحجار تخطئ ، وكل رشق ينكي ، ومنها اختلاف الرياح بما يضر أو سكونها عند وقت الحاجة إليها ، ومنها أنه لايمكن فيه الهرب والفرار إن اقتضت المصلحة ذلك ولا الاستتار

وقد مثل العرب حرب البر وحرب البحر بالشطرنج والنرد ، فقد قالوا نقلاً عن أحد حكماء الفرس : إن الشطرنج وضع فيمثل حرب البر ، والنرد وضع لتمثيل حرب البحر فصاحب النرد وإن وضع المهارك في الموضع الجيد واحترز ، فاذا جاءت الفصوص بما لايوافق الغرض لم ينتفع باحترازه ، وبطل عليه تدبيره كاختلاف الريح ، واضطراب البحر ..[1]

وكانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الاعداء إن قدموا بحراً ، فأهل دمشق يرابطون في بيروت ، وأهل القدس في الرملة أو يافا ، وأهل حمص في طرابلس ، وكانت قرية كفر سلاّم من قرى قيسارية في فلسطين ولها رباطات على البحر ، يقع فيها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم ، معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمئة دينار . وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ، ويحمل اليهم أصناف الأطعمة ، ويضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم ، فان كان الوقت ليلا

---

(١) آثار الأول في ترتيب الدول للحسن بن عبد الله

أوقدت منارة ذلك الرباط ، وإن كان نهاراً دخّنوا ، ومن كل رباط الى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها اقوام ، فتوقد المنارة التي للرباط ثم الى التي تليها ثم الاخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة ، واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلاً ، وآخر يطرح درهماً أوخاتماً حتى يشتري ما معهم .[1]

ومن حيلهم في الحروب البحرية ما ذكره ابن شداد عن محاصرة الإفرنج لبرج الذباب[2] قال : ولما كان الثاني والعشرون من شعبان جهز العدو بطساً متعددة لمحاصرة برج الذباب ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء يحرس به الميناء ، ومتى عبرته المراكب أمنت غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول إليه بشيء من البطس ، فتنقطع الميرة عن البلد ؛ فجعلوا على سواري البطس برجاً وملأوه حطباً على أنهم يسيرّون البطس ، فاذا

---

(١) خطط الشام للعلامة كرد علي

(٢) كان أمام عكا برج منقطع المكان يحيط به البحر من جوانبه ويسمى برج الذباب يحمي مراكب المسلمين في الميناء . وكان مشحوناً بالجرخية ، والرماة والزراقين ، والمنجنيقية ، فحاول الفرنج أن يهدموه ليتمكنوا من فتح عكا (العماد الاصفهاني)

قاربت برج الذباب ولاحقته أحرقوا البرج الذي على الساري ، وألصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ،ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البطسة وقوداً كثيرة حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه . وعبّوا بطسة ثانية وملأوها حطباً ووقوداً كثيراً على أنهم يدفعون بها الى ان تدخل بين البطس الاسلامية ، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايحصل لهم نشّاب ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها ، والبرج الذي أرادوا أن يحرقوا به من على برج الذباب ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط ، انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد ، واشتعلت البطسة التي كان بها بأسرها ، واجتهدوا باطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة ، إلا من شاء الله واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ، وثبت أصحابنا عليها فأخذوها اليهم . . .) .

وذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٣١هـ (أن يوسف بن وجيه صاحب عُمان سار في مراكب كثيرة يريد البصرة ، وحارب البريدي فملك الأُبلّة ، وقوي قوة عظيمة وقارب أن يملك البصرة ، فأشرف البريدي وإخوته على الهلاك ، وكان له ملاّح يعرف بالرنادي ،

فضمن للبريدي هزيمة يوسف فوعده الاحسان العظيم ؛ وأخذ الملاح زورقين فملأهما سعفاً يابساً ولم يعلم به أحد ، وحدرهما في الليل حتى قارب الأُبُلّة ، وكانت مراكب ابن وجيه تشد بعضها إلى بعض في الليل فتصير كالجسر ، فلما انتصف الليل أشعل ذلك الملاح النار في السعف الذي في الزورقين ، وأرسلهما مع الجزر والنار فيهما ، فأقبلا أسرع من الريح فوقعا في تلك السفن والمراكب فاشتعلت واحترقت فلوسها واحترق من فيها .

حركات الاسطول

جرت عادة الأسطول الاسلامي أن يقوم بتمارين وحركات وألعاب يمثل بها الحرب مع الأعداء، لتمرين رجال الاسطول وأختبارهم بفنون حرب الماء، وفحص القطع البحرية ومدى استعدادها على القتال، على شكل المناورات البحرية التي تجريها أساطيل الدول في هذا العصر. وكان الخلفاء والملوك يحتفلون في هذا اليوم احتفالاً عظيماً، يشهده الأمراء والوزراء ورجال الدولة والرعية على اختلاف طبقاتهم. وتأتي الاساطيل مزينة بأسلحتها، ولبودها، ومنجنيقاتها، وجميع عددها الحربية، وتنحدر أمام الخليفة فتقوم بألعاب وحركات كما لو اشتبكت مع العدو. وقد وصف أبو بكر[1] محمد بن عيسى لعب الأسطول يوم المهرجان بجزيرة (ميورقة) فقال:

بُشرى بيوم المِهرَجان فانه يوم عليه من احتفائك رونقُ

---

(١) هو أبو بكر بن عيسى المعروف بابن اللبانة من أهل مدينة (دانية) على ساحل البحر الرومي. كان شاعراً رضي الشعر بضاعة وتخيره مكسباً، كان منقطعاً الى المعتمد على الله أبي القاسم بن عبّاد. ولما خلع المعتمد وأخرج من اشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب في البلاد الى أن لحق بجزيرة ميورقة وبها مبشر العامري الملقب بالنصر فحظي عنده، وعلت حاله معه، وله فيه قصائد منها مدحه إياه يوم المهرجان.

طارت بنات الماء فيه وريشها ... ريش الغراب وغير ذلك شوذق (٢)

وعلى الخليج كتيبة جرارة ، ... مثل الخليج كلاهما يتدفّق

وبنو الحروب على الجواري التي ... تجري كما تجري الجياد السبّق

ملأ الكماة ظهورها وبطونها ... فأتت كما يأتي السحاب المُغدق

خاضت غدير الماء سابحةً به ... فكأنما هي في سراب أينق

عجباً لها ما خلت قبل عيانها ... أن يحمل الأسد الضواري زورق

هزت مجاديفاً إليك كأنها ... أهداب عين للرقيب تُحدق

وكأنها أقلام كاتب دولة ... في عرض قرطاس تخط وتمشق

ووصف هذا اليوم المقريزي في المواعظ والاعتبار فقال : وفي سنة ٦٩٢ هـ تقدم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، الى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السعلوس ، بتجهيز أمر الشواني فنزل الى الصناعة ، واستدعى الرئيس وهيأ جميع ما تحتاج إليه الشواني حتى كملت عدتها نحو ستين شونة ، وشحنها بالعدد ، وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح ، فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب ، قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام وصنعوا لهم قصوراً من خشب ، وأخصاص القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر وبالروضة ، واكتروا الساحات التي قدام الدور والزرابي بالمائتي درهم ، كل زريبة فما دونها بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر

(٢) الشوذق الصقر او الشاهين .

إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك ، فصار جمعاً عظيماً ، وركب السلطان ونائبه الأمير (بيدر) وبقية الأمراء قدام دار النحاس ، ومنع الحجاب من التعرض لطرد العامة ، فبرزت الشواني واحدة بعد واحدة ، وقد عمل فى كل شونة برج وقلعة تحاصر ، والقتال عليها ملحّ ، والنفط يرمى عليها ، وعدة من النفاطين في أعمال الحيلة في النقب ، وما منهم إلا من أظهر في شونته عملا معجباً وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه ، وتقدم ابن موسى الراعي وهو في مركب نيليلة فقرأ قوله تعالى : (بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) ؛ ثم تلاها بقراءة قوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) الى آخر الآية . هذا والشواني تتواصل بمحاربة بعضها بعضاً إلى أن أذّن لصلاة الظهر ، فشخص السلطان بعسكره عائداً الى القلعة ، فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو في اجتماعهم ، وكان شيئاً يجل وصفه . وأنفق فيه مال لايعد بحيث بلغت أجرة المركب في هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها . وكان الرجل الواحد يؤخذ منه أجرة ركوبه في المركب خمسة دراهم . وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة في هذا اليوم . وكان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم ، فلكثرة اجتماع الناس بمصر يبع سبعة أرطال

بدرهم ، فبلغ خبر الشواني الى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح !)

و كان لهم يوم مشهود عند وداع الاسطول ، يحتفل الخليفة او السلطان به ؛ وقد وصفه القلقشندي في صبح الاعشى فقال : أما اهتمام الدولة الفاطمية بالأساطيل ، وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم و كانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالاسكندرية ودمياط من الديار المصرية ... فاذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو جلس للنفقة بنفسه حتى ليكملها ، ثم يخرج مع الوزير الى ساحل النيل بالمقسم فيجلس في منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة ، ويأتي القواد بالمراكب التى تحت المنظرة وهي مزينة بالاسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة في بعضها ، فتسير بالمجاديف ذهاباً و عوداً ، كما يفعل حالة القتال ثم يحضر إلى بين يدي الخليفة المقدّم والريّس ، فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة ، وتنحدر المراكب الى دمياط وتخرج الى البحر الملح ، فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعة ...

و قال المقريزي في كتاب السلوك : وفي سنة ٦٥٩هـ ركب الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم بن الامام الظاهر والسلطان من قلعة الجبل الى مدينة مصر ، وركبا في الحراريق وسارا في النيل الى قلعة الجزيرة

وجلسا فيها ، وأحضرت الشواني الحربية ، فلعبت في النيل على هيئة محاربتها العدو فى البحر . ثم ركبا إلى البر وسارا الى قلعة الجبل ، وقد خرج الناس لمشاهدتها ، فكان من الأيام المشهودة .

لمحة تاريخية

البحرية الاموية :

لما أسند الخليفة عمر بن الخطاب أمر تدبير الشام إلى معاوية بن أبي سفيان سنة ١٨ للهجرة ، واتصلت أطراف الملك العربي بشواطئ البحر الشامي ، بعد أن انحسر عنه ظل الرومان وسلطانهم ، نظر معاوية بثاقب رأيه الى ما كانت عليه أمة الرومان من الحروب والمتاجرة في هذا البحر بالسفن والأساطيل وشره الى مجاراتهم فيه ، وقرّب إليه كل ذي صنعة بمبلغ صناعته ، واستخدم النواتية ممن تكررت ممارستهم للبحر . ولما أذن له الخليفة عثمان بن عفان أن يغزو في البحر أنشأ السفن والشواني وشحنها بالرجال والسلاح ، وانطلق الاسطول العربي لأول مرة ، يمخر عباب هذا البحر ، يغير على ما كان قريباً من ثغور الروم ومرافئهم ، الى شواطئ الشام وإفريقية ، والمغرب والأندلس .

وسار خلفاء معاوية من بني أمية على سنّته ، فأكثروا من انشاء الأساطيل الحربية ، وجهزوها بأدوات الكفاح ، ورتبوا عليها القواد وزودوها بالأقوات ، والأرزاق في مدة لا تتجاوز قرناً ، وضاهت الدولة الأموية الدولة البيزنطية العريقة في أحوال البحر وركوبه ونافستها فيه ، وأوقعت الرعب في قلوب سائر أمم حوض البحر الأبيض من روم وإفرنج وقوط ، بما فتحته من ثغور وما ملكته من

جزر ، فكانت هذه القوة البحرية عاملاً كبيراً في اتساع رقعة الدولة العربية الفتية ، التي يعود الفضل في إنشائها الى الخليفة عثمان ، ومن ثم الى معاوية بن أبي سفيان أول أمير عربي ركب هذا البحر .

غزا معاوية جزيرة قبرس سنة ٢٨ ومضيق القسطنطينية سنة ٣٢ واشترك بوقعة ذات السواري في مياه الأسكندرية سنة ٣٤ ورتب الشواني والصوائف في البحر . وغزا عبد الله بن قيس الجاسي في البحر خمسين غزاة بين شاتية وصائفة . وغزا بسر بن أرطاة سنة ٤٤ ومالك ابن هبيرة السكوني سنة ٤٨ . وغزا يزيد بن شجرة الرهاوي بأهل الشام وعقبة بن نافع بأهل مصر سنة ٤٩ ، وغزا فضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٠ . وفتح جنادة بن أبي أمية الازدي جزيرة رودس سنة ٥٣ ، وغزا جزيرة أرواد بالقرب من القسطنطينية سنة ٥٤ وأقام الأسطول الأموي هناك سبع سنين حتى توفي معاوية . وغزا يزيد ابن شجرة البحر بنفسه سنة ٥٦ . وأوعز الخليفة عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد .

وفي زمن الوليد بن عبد الملك بعث موسى بن نصير مولاه طريفاً لغزو الأندلس سنة ٩٢ فسار في أربع سفائن الى جزيرة بالأندلس سميت باسمه لنزوله فيها ، وفتحت سردانية .

وفي زمن هشام بن عبد الملك غزا معاوية بن هشام جزيرة قبرس سنة ١٠٨ ، وغزا عبدالله بن عقبة الفهري سنة ١٠٩ ، وغزا بشر بن صفوان عامل إفريقية جزيرة صقلّية سنة ١٠٩ ، وفي سنة ١١٠ كان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، وغزا عبد الله بن أبي مريم سنة ١١١ . واستعمل هشام عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية فسير جيشاً إلى صقلّية سنة ١١٦ ، وسير حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بجيش الى جزيرة سردانية ، ففتح فيهـا وعاد غانماً سنة ١١٧ ، ثم سيره إلى صقلية سنة ١٢٢ ، ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب ، فلما نزل بأرضها وجه عبد الرحمن على الخيل ، فلم يلقه أحد إلا هزمه عبد الرحمن فظفر ظفراً لم ير مثله ، حتى نزل على مدينة (سرقوسة) وهي من اعظم مدن صقلية ، فقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم ، فصالحوه على الجزية وعاد الى أبيه ، وعزم حبيب على المقام بصقلية إلى أن يملكها جميعاً فأتاه كتاب عبد الله بن الحبحاب والي إفريقية يستدعيه إلى إفريقية .

وفي سنة ١٢٥ أمّر الوليد على جيوش البحر الأسود بن بلال المحاذي وسيره إلى قبرس ليخيّر أهلهـا بين المسير إلى الشام أو إلى الروم ، فاختارت طائفة جوار المسلمين فسيرهم إلى الشام ، واختار آخرون الروم فسيرهم إليهم (١) .

---

(١) قال البلاذري : إنما فعل الوليد بهم هذا لأمر اتهمهم به ، فأنكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم .

وفي زمن ابنه يزيد كان الغازي في البحر المغيرة بن عبيد الأزدي الخراساني ، وكان ضايق الروم حتى ضجروا منه وحسبوا له حساباً .

محاربة بني العباس وبني الاغلب :

انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وكان الملك العربي قد بلغ الغاية من القوة والسلطان ، فهاب جانبهم الافرنج براً وبحراً ، بما اقاموه من الحصون في العواصم ، وما أنشؤوه من السفن وحشدوه من الأساطيل في الثغور والمرافئ . وغلبوا على البحر من جميع جوانبه حتى صاروا أسياده وحماته وأربابه .

ففي خلافة أبي العباس عبد الله السفاح سنة ١٣٥ غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية ، وغنم بها وسبى وظفر بها ظفراً لا عهد لأحد به من قبله . فعمر الروم الحصون ، والمعاقل حول الجزيرة وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بها وتذب عنها ، وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم (١)

وكان من رجال البحر في زمن المنصور ، معيوف بن يحيى الحجوري الدمشقي ، وكانت الروم تهابه .

وفي سنة ١٥٩ وجه الخليفة المهدي عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند ، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع

---

(١) ابن الأثير .

الأجناد ، وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات . ١٥ ، ووجه معه قائداً من أبناء الشام في ٧٠٠ من أهل الشام ، وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الأسواريين والسبابجة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل ؛ مضوا حتى أتوا مدينة (باربد) من بلاد الهند ، فناهضوها بجميع الآلة واشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم [١]

وفي سنة ١٦١ غزا الغمر بن العباس في البحر وفي زمن الرشيد كان أمير البحر الابيض المتوسط حميد بن معيوف الهمداني فغزا جزيرة إقريطش وكان أول من غزاها جنادة .

وغزا حميد قبرس لحدث أحدثه أهلها فأسر منهم بشراً ، ثم أنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا .

وفي خلافة المأمون بن هارون الرشيد كان أمير إفريقية زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الاغلب [٢] فجهز جيشاً في اسطول سنة ٢١٠

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية للخضري .

(٢) كانت افريقية تابعة الى بغداد تكلفها من النفقات مائة الف دينار سنوياً فلما كانت ولاية محمد بن مقاتل كره أهل البلاد ولايته وداخلوا أحد قواد الرشيد (ابراهيم بن الاغلب) في أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم ، فكتب ابراهيم الى الرشيد في ذلك ، فاستشار الرشيد الثقات من أهل دولته ، فأشار عليه هرثمة بن أعين بأن يوليه لعقله ودينه وكفايته ، على ان يظل الحكم له مدة حياته ويبقى وراثياً في أسرته من بعده . فسكنت الثورات وانقمع الشر ، واستقلت افريقية استقلالا ذاتياً لحكم الأغالبة سنة ١٨٤ هجرية و ٨٠٠ ميلاديه .

وكان مؤلفاً من مراكب كثيرة ، وسيره الى سردانية وهي للروم فعطب بعضها بعد أن غنموا من الروم ، وقتلوا كثيراً ، فلما عاد من سلم منهم أحسن اليهم زيادة الله .

وفي سنة ٢١٢ جهز زيادة الله الاول جيشاً في البحر وسيرهم إلى جزيرة صقلية واستعمل عليهم أسد بن الفرات شيخ الفتيا (قاضي القيروان) فملكوا كثيراً منها .

وفي خلافة المعتصم بن هارون الرشيد سير أبو عفان بن ابراهيم بن الأغلب سرية سنة ٢٢٤ الى صقلية فغنمت وسلمت ، واهتم المعتصم بالاسطول الشامي اهتماماً بلغ حد الاتقان والعدد .

وفي خلافة الواثق بالله وإمارة أبي العباس محمد بن الأغلب سنة ٢٢٨ سار الفضل بن جعفر الهمداني في البحر فنزل مرسى (مسيني) وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة .

في سنة ٢٤١ ولّى المتوكل على الله محمد بن عبد الله القمي محاربة البجاة في إفريقية لنقضهم العهد مع أمير مصر ، وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبي عامل حرب مصر بازاحة علته ، واعطائه من الجند ما يحتاج إليه ففعل ، ووجه إلى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالدقيق والزيت . . . والشعير ، والسويق ، وأمر أصحابه أن يوافوه بها في ساحل البحر مما يلي بلاد البجاة .

وكان في ايام المتوكل على الله أحمد بن دينار أميراً على البحر وقد اهتم بالأسطول المصري اهتماماً عظيماً .

وفي خلافة أحمد بن المتوكل على الله وإمارة ابراهيم الثاني بن أحمد من بني الأغلب سنة ٢٦٦ التقى اسطول المسلمين وأسطول الروم عند صقلية فجرى بينهم قتال شديد، فظفر الروم بالمسلمين وأخذوا مراكبهم وانهزم من سلم منهم الى مدينة (بلرم) في صقلية [1]

---

(١) ظل بنو الاغلب في إفريقية يتوارثون الامارة عليها من سنة ١٨٤ — ٣٠٣ بتفويض من خلفاء بني العباس في بغداد . وكانوا يرسلون السرايا والأساطيل الى صقلية تباعاً ، حتى فتحها أسد بن الفرات من قبل زيادة الله الاول بن الاغلب سنة ٢١٢ وجعلوا عليها ولاة من قبلهم . ولما خرج العلويون من المغرب وأزالوا ملك بني الأغلب ، استولوا على صقلية فيما استولوا ، وصاروا يرسلون ولاتهم اليها ويعززونها بأساطيلهم ، فكانت قاعدة للأسطول العربي في غربي البحر الابيض المتوسط ، كما كانت قبرس قاعدة هذا البحر في شرقيه يغيرون منها على سواحل الروم والافرنج ويقتطعون من ثغورهم ويحتلون جزرهم مدة قرن ونصف .

وجاء في كتاب المجمع التونسي على عهد الاغالبة: الاسطول الاغلبي من اعظم الاساطيل الاسلامية. ناهيك انه فتح صقلية ، وقلورية ، وسردانية ، وقوصرة، ومالطة ، واكتسح إقريطش وشطوط إيطاليا ، وفرنسا ، ونازل الاسطول الرومي ، وانتصر عليه ، وحمى ذمار المملكة الافريقية ، وقد كانت دور الصنائع بتونس، وسوسه ،وصقلية تجهد نفسها في العمل المستمر لانشاء السفن، وهي معامل عظيمة بها العدو العظيم من الشغالين وأهل الدراية في الصناعة .

ومقدم الاسطول من أركان الدولة وهو بمثابة وزير البحر . وقد كان الاسطول الاغلبي على غاية ما يرام من النظام يشمل جملة قطع مختلفة الشكل لاختلاف الغايات ...

وفي سنة ٢٨٥ غزا راغب مولى الموفق في البحر ، فغنم مراكب كثيرة ، فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها ، وأحرق المراكب ، وفتح حصوناً كثيرة وعاد سالماً ومن معه .

بحرية بني العباس والعبيديين :

في خلافة المقتدر بالله جعفر بن المعتضد العباسي ، بايع أهل القيروان عبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق الملقب بالمهدي وأسس دولة العبيديين (أو الفاطميين) في إفريقية ومصر ، واهتم خلفاء هذه الدولة بالأمور البحرية ، فبنوا دور الصناعة ، وأكثروا من إنشاء الأساطيل وشحنوها بالرجال والعتاد ، لغزو الروم والفرنج في جزر البحر الابيض والبر الشمالي من هذا البحر ، فهابت جانبهم أمم الافرنج وغدا البحر الابيض بحراً عربياً بما استولوا عليه من الجزر والثغور ، وأشهر من اهتم ببناء الاساطيل من خلفاء الفاطميين القائم [1] والمعز ، ودامت قوتهم البحرية ، بدوام ملكهم حتى خرجت من يدهم صقلية سنة ٤٨٤ وأدركهم الفشل فتقوت الأمم التي وراء البحر واسترجعت جزرها وموانيها .

ولعلي بن محمد الإيادي قصيدة يصف بها أسطول القائم وقوته البحرية :

---

(١) في سنة ٣٢٣ سير القائم العلوي جيشاً من افريقية في البحر الى ناحية الفرنج ففتحوا مدينة جنوه ، ومروا بساردانية وأوقعوا بأهلها وأحرقوا مراكب كثيرة ، ومروا بقرقيسيا فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين .

إعجب لأسطول الإمام محمد ... ولحسنه وزمانه المستغرَبِ
لبستْ به الأمواج أحسن منظر ... يبدو لعين الناظرِ المستعجِب
من كل مُشرفة على ما قابلتْ ... إشراف صدر الأجدل المتنصّب
دهماءُ قد لبست ثياب تصنّع ... تسبي العقولَ على ثياب ترهّب
من كل أبيض في الهواء منشّر ... منها ، وأسحم في الخليج مغيّب
كمراءة في البر يقطع سيرُها ... في البحر أنفاس الرياح الشُذّب
محفوفةٌ بمجادف مصفوفةٍ ... في الجانبين دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّب
كقوادم النسر المرفرف عُريت ... من كاسيات رياشه المتهدب
وتحثها أيدي الرجال إذا دنت ... بمصعّد منه بُعيد مصوّب
خرقاءُ تذهب إن يدٌ لم تهدها ... في كل أوب للرياح ومذهب
جوفاء تحمل كوكباً في جوفها ... يوم الرهان وتستقلُّ بمركب
ولها جناح يستعار لطيرها ... طوع الرياح ، وراحة المتطرّب
يعلو بها حدبُ العباب مُطارةً ... في كل لُجّ زاخر مغلولب
تسمو بأجرد في الهواء متوج ... عريان منسوج الذؤابة شوْذب
يتركب الملاح منه ذُبابةً ... لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنما رام استراقة مقعدٍ ... للسمع ، إلا انه لم يشهب
وكأنما جِن ابن داود همُ ... ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا ... منها بألسن مارج متلهب

من كل مسجور الحريق إذا انبرى ... من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عُريان يقذفه الدخانُ كأنه ... صبح يكر على الظلام الغيهب
ولواحقٌ مثل الأهلة جنح ... لحق المطالبُ فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهن لطافةً ... ويجئن فعل الطائر المتغلب
كنضائض الحيات رحن لواعباً ... حتى يقعن ببرك ماء الميزب
شرجوا جوانبها مجادف أتعبتْ ... شأو الرياح لها ولمّا تتعب
تنصاع من كتب كما نفر القطا ... طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليل يقرب عقرباً من عقرب
وعلى كواكبها أسود خلافة ... تختال في عُدد السلاح المرهب
فكأنما البحر استعار بزيهم ... ثوب الجمال من الربيع المُذهب

وأبو القاسم بن هاني يصف أسطول المعز بالله بقصيدة تدل على مقدار ما وصلت اليه قوة هذه الدولة البحرية :

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترخي القباب على المها ... ولكنّ من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب ... مسومة يجري بها وجنود
أطال لها إن الملائك خلفها ... فمن وقفت خلف الصفوف ردود
وإن الرياح الذاريات كتائب ... وإن النجوم الطالعات سعود
عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود

مواخر في طامي العباب كأنه ... بعزمك بأس أو لكفك جود

أنافت به آطامها وسمالها ... بناء على غير العزاء مشيد

وليس بأعلى كبكب وهو شاهق ... وليس من الصفاح وهو صلود

من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وربود

من القادحات النار تضرم بالصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شب من نار الجحيم وقود

تعانق موج البحر حتى كأنه ... سليط له فيه الذبال عتيد

ترى الماء منه وهو قان خضابه ... كما باشرت ردع الخلوق جلود

فأنفاسهن الحاميات صواعق ... وافواههن الزافرات حديد

يشب لآل الجاثليق سعيرها ... وما هي من آل الطريد بعيد

لها شعل فوق الغمار كأنها ... دماء تلاقيها ملاحف سود

وغير المذاكي نجرها غير أنها ... مسومة تحت الفوارس قود

فليس لها الا الرياح أعنة ... وليس لها إلا العباب كديد

ترى كل فود للتليل كما انثنت ... سوالف غيد أعرضت وخدود

رحيبة مد الباع وهي نتيجة ... بغير شوى ، عذراء وهي ولود

تكبرن عن نقع يثار كأنها ... موال وجرد الصافنات عبيد

لها من شفوف العبقري ملابس ... مفوقة فيها النضار جسيد

كما اشتملت فوق الأرائك خُرّد ... أو التفعت فوق المنابر صيد

لبوس تكف الموج وهي غطامط وتدرأ بأس اليم وهو شديد
فمنها دروع فوقها وجواشن ومنها خفاتين لها وسرود

بحرية الامويين في الاندلس :

أما الأندلس فكان عبد الرحمن الناصر [١] أول من اهتم بأمر البحرية ، فأكثر من بناء السفن الحربية ورتب الأساطيل على مثال أساطيل الفرنج ، وأتقن صناعتها وعدتها . وفي أيامه تقوت الأساطيل بالأندلس وزاد عددها عن مائتي سفينة ، وكان لها جملة مرافئ ، إلا أنها تردد في الكثير على بجاية والمرية . وكان أمر الاساطيل يُعهد لأمير من عظماء الدولة ، يدبر جريها ويأمر بمرساها في السواحل والمين ، وإليه يرجع أمرها وقد تمكن الناصر بهذه الأساطيل من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج [٢]

---

(١) عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله تولى الملك من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ وكان هو أول من تسمى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس . وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣٢٧ فتلقب بألقاب الخلافة .

(٢) سنة ٣٤٤ هـ انشأ عبد الرحمن الاموي صاحب الاندلس مركباً كبيراً لم يعمل مثله وسير فيه امتعة إلى بلاد الشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز ، فقطع عليه اهل المركب الاندلسي واخذوا مافيه واخذوا الكتب التي إلى المعز ، فبلغ ذلك المعز فعمر اسطولاً واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقليه وسيره إلى الاندلس فوصلوا إلى المرية فدخلوا المرسى واحرقوا جميع ما فيه من المراكب

ولم يكن الحكم بن عبد الرحمن بأقل اهتماماً بشؤون البحر من أبيه ، و كان في زمانه قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس .

وفي زمن هشام بن الحكم أنشأ وزيره محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور اسطولاً كبيراً في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الاندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصفوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة[1]

قال ابن خلدون : .. وكانت من بعد ذلك اساطيل إفريقية والأندلس في دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما (الروم والافرنج) في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب .. وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل : ميورقة ومنورقة ، ويابسة ، وسردانية ، وصقليه ، وقوصره ومالطه ، واقريطش وقبرس وسائر ممالك الروم والافرنج ، وكان ابو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون

---

(١) وفي سنة ٢٦٦ أمر محمد بن عبد الرحمن بانشاء مراكب في نهر قرطبة وحملها إلى البحر المحيط ، فلما دخلته المراكب تقطعت ولم يجتمع فيها مركبان ولم يرجع منها إلا اليسير (ابن الاثير)

أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلا ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية، فتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم، كما وقع في ايام بني الحسين ملوك صقليه القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت امم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختفلت فى طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه الواح، حتى إذا ادرك دولة العبيدية والأموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية ...

بحرية المغرب الاقصى ومراكش: المرابطون والموحدون:

لقد اشتهرت هذه المملكة قديماً بالأعمال البحرية أثناء الدولة العلوية، والأموية، والمرابطين، والموحدين، والأشراف، وكانت سفنهم تجول على الدوام بجهات المحيط الاطلنطيقي وتتردد على جزائر الخالدات (قناريا) وافتتحت أساطيلها خصوصاً أساطيل الموحدين

جزائر ميورقة ، ومنورقه ، و كورسيكه ، ومدينة جنوه ، وهددت كثيراً من سواحل أوروبا . واستولت مراراً على ثغر الاسكندرية وحاربت في وقائع بحرية شهيرة بسواحل بلاد الأندلس وغيرها . ولما تقهقرت صارت ثغورها البحرية مأوى لكثير من سفن القرصان الذين طالما غزوا في البحار وهددوا تجارة أوروبا بالبحر الابيض المتوسط خصوصاً .[1]

وفي سنة ٥٠٤ هـ نزع علي بن عيسى بن ميمون[2] قائد أساطيل المرابطين طاعتهم وانحاز الى الموحدين ، فتقوى الموحدون بذلك وأخذوا في الاكثار من بناء السفن والأساطيل بجميع الثغور ، ثم إن عبدالمؤمن جهز في السنة المذكورة يوسف بن مخلوف بجيش عظيم من الموحدين وأرسله بالأساطيل لفتح الاندلس من يدعمال المرابطين .

وفي سنة ٥٥٧ أمر بانشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه ، فأنشؤوا له ٤٠٠ قطعة منها : بحلق الوادي والمهدية ١٢٠ قطعة ومنها بطنجة ، وسبته ، وبادس ومراسي الريف ١٠٠ قطعة ، ومنها ببلاد إفريقيا ووهران ومرسى هينين ١٠٠ قطعة ، ومنها ببلاد الأندلس ٨٠ قطعة ؛ وعلى الاجمال فقد كانت دولة الموحدين من أعظم لدول وأقواها

---

(١) حقائق الاخبار عن دول البحار

(٢) قال صاحب المعجب : كان القائد أبوعبد الله بن ميمون أميراً للبحر ماهراً بشؤونه حتى عرف به وهو من أهل مرّية من رجال القرن السادس .

وأفخمها ، وقد نالت الشهرة العظيمة في الاعمال البحرية .[١]

وقال ابن خلدون : لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف، وأعظم ما عهد ، وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي أصله من (صدغيار) الموطّنين بجزيرة جربة من سرويكش ، أسره النصارى من سواحلها وربّي عندهم ، واستخلصه صاحب صقلية ، واستكفاه ثم هلك وولي ابنه ، فأسخطه ببعض النزعات ، وخشي على نفسه ولحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن ، راجاز الى مراكش ، فتلقاه الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة ، وأجزل الصلة ، وقلده أمر اساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثار وأخبار ، ومقاومات مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ، إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه .[٢]

دول المغرب الاقصى :

ولم يكن اهتمام دول المغرب (من بني حفص بإفريقية ، وبني زيان بالمغرب الأوسط ، وبني مرين بالمغرب الأقصى ، وبني الأحمر بالاندلس) بانشاء الأساطيل وتجهيزها بالآلات الحربية بأقل من اهتمام غيرهم من دول المسلمين ، حتى غدت هذه الدول دولاً بحرية ذات شأن عظيم

---

(١) حقائق الاخبار

(٢) المقدمة

في مياه البحر الابيض المتوسط ، والمحيط الاطلنطي ، ووقفت في وجه الاعداء الفرنج من سكان اسبانيا زمناً طويلاً ، إلى أن أشرفت دولهم على الهرم ، وحدثت الفتن بينهم و انشغلوا بأنفسهم عن عدوهم[1] الذي طالما تربص الفرصة للكرة عليهم ولما عظم أمر الاسبان ، واجتمعت كلمة البرتغال ، وتكررت أسفارهم البحرية ، واستولوا على عدة جزر بالبحر المحيط ، و كشفوا بعض سواحل السودان وغيرها ، انقضّوا على سواحل المغرب الأقصى ، وانتزعوها من أبنائها مرفأ مرفأً ولم تأت سنة ٨١٨ هـ حتى أتوا على كثير من الثغور والمين[2] .

---

(١) لما ملك الفرنج صقلية قوي مركزهم الحربي فيها وجعلوا يغيرون بأساطيلهم على بلاد المسلمين في إفريقية الشمالية ومنها طرابلس والمهدية فيسلبون وينهبون ثم يعودون إلى بلادهم ، وكان أمراء إفريقية من المسلمين يستعينون (برجار) ملك صقلية على حرب بعضهم في قابس وغيرها من المدن حتى تمكن رجار من طرد الحسن بن باديس من المهدية وملك من طرابلس الغرب إلى قريب تونس ، ومن المغرب إلى دون القيروان . وفي سنة ٥٥٤ استنجد أهل إفريقية بعبد المؤمن صاحب الاندلس والمغرب في مراكش على الافرنج ، فسار عبد المؤمن ومعه الحسن بن باديس إلى المهديه والأسطول يحاذيه في البحر وأحاط بالمدينة كالسوار براً وبحراً ، وجاء أسطول صاحب صقلية في مئة وخمسين شينياً غير الطرائد ، فلما حطوا في الميناء خرج إليهم أسطول عبد المؤمن ، واقتتلوا في البحر ، فانهزمت شواني الفرنج وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني ، وعادوا إلى حصار المهدية حتى استسلم من بها من الافرنج وعادت الى صاحبها ابن باديس تحت إمرة عبد المؤمن ابن علي صاحب المغرب بعد ان بقيت في يد الفرنج ١٣ سنة .

(٢) حقائق الأخبار .

بحرية بني ايوب :

بعد اضمحلال قوة الفاطميين البحرية وظهور الغلبة لمراكب الفرنج في الجانب الشرقي من بحر الروم ، وبما امتلكته من الثغور الشامية التي لم يعهد لها بمثله من قبل ، نهضت الدولة الأيوبية ، وعلى رأسها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام ، ولم يكن إذ ذاك عنده من القوة البحرية ما يجعله يقف في وجه الفرنج ، اعتنى بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً ، عرف بديوان الأسطول ، وأوقف له الخراج في مصر لا يقطع منها إلا ما تمس الحاجة إليه لعمل الأساطيل ، فلما مات السلطان صلاح الدين استمر الحال في الأسطول قليلاً ، ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة اليه ، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا في السلاسل نهاراً وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولي غضب غضباً شديداً ، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس .

بحرية المماليك :

ثم لما انقرضت دولة بني أيوب ، وتملك الأتراك المماليك مصر ، أهملوا أمر الأسطول إلى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري[1] . فنظر في أمر الشواني الحربية ، واستدعى برجال الأسطول ، وكان الأمراء قد استعملوهم في الحراريق وغيرها وندبهم للسفر ، وأمر بمد الشواني ، وقطع الأخشاب لعمارتها ، وإقامتها على ما كانت عليه في ايام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واحترز على الخراج ، ومنع الناس من التصرف في اعواد العمل ، وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب من عمل الشواني ومصالحها ، واستدعى بشواني الثغور إلى مصر ، فبلغت زيادة على اربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة . . . وجارى السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الملك الظاهر بعمل

(١) بلغ من اهتمام الملك الظاهر بالاساطيل الحربية انه قرر فتح جزيرة قبرس التي كانت حينئذ تحكمها أسرة مستقلة ، ولكنها أصبحت قاعدة لقراصنة البحر يهددون منها سفن العرب وسواحلهم الشرقية ، فأرسل بيبرس جيشاً من مصر نزل إلى ارض الجزيرة ، وهزم جيش قبرس ، وأسر ملكها فأحضر إلى القاهرة وطيف به في شوارعها مع عدد آخر من الأسرى ، وبعد أن قضى مدة سجيناً في قلعة القاهرة ، أفرج عنه نظير فدية دفعها ثم اعيد الى عرشه بعد ان تعهد بان يدفع للخزينة المصرية جزية قدرها عشرون الف دينار في كل سنة .

الشواني وتجهيزها في دور الصناعات ، ومثله السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهكذا إلى آخر دولة المماليك التي عرفت بالتاريخ في أعمالها التجارية والحربية في البحر [١] .

بحرية الاشراف السعداويين :

اهتم أحد سلاطين هذه الدولة محمد بن عبدالله بن اسماعيل (١٢٠٤هـ) بالأمور البحرية ، فبعد أن مهد ما يجب تمهيده وأصلح ما يلزم إصلاحه خرج إلى الثغور البحرية متفقداً أحوالها ، فنزل (تطاوين) وبنى بها برجاً حصيناً ومنها ذهب إلى (طنجة) جاعلاً طريقه على سبتة وكانت للاسبانيين ، ووقف عليها ونظر في حصونها وأبراجها ولما تحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجد ، سار إلى العرائش بعد أن نظر في أحوال طنجة ، وأنزل بها حامية ، ومنها توجه إلى سلا فبنى بها برجاً على البحر . وأمر التجار فاشتروا له أدوات المراكب القرصانية ، وأرسل إلى بلاد السويد من يشتري له بعض لوازم السفن والبارود . وأرسل أيضاً غيره إلى بلاد الانكليز ليشتري له منها سفناً وعُدداً للمراكب وغيرها من المدافع ، ولما كان له ولع في الجهاد بالبحر اتخذ له مراكب حربية تكون في غالب الأوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش ، وكان سفرها في البحر مقصوراً على شهرين في السنة لعدم صلاحية المراسي في

(١) المواعظ والاعتبار للمقريزي

غير هذا الوقت ، فلهذا فكر في طريقة يتأتى بها سفر سفنه في سائر أيام السنة ، فبنى ثغر الصويره ، واعتنى به لسلامة مرساه وليكون ثغراً تجارياً ، وحصنه بالمدافع ، وجعل به أبراجاً على صخور داخل البحر وشحنه بالعدد والجنود ، فصار القاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع من هذا البرج وغيره .

وأهداه السلطان مصطفى العثماني مركباً موسوقة بالمدافع ، والمهاريس النحاسية مع عددها وعدد مراكب قرصانية أخرى من سواري ، ومخاطيف ، وقلوع ، وقمن « غمنات » وحبال ، وبراميل وغير ذلك من الآلات البحرية . وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بصب المدافع والمهاريس ، والكور ، والبمب ، وصناعة المراكب القرصانية ، وبينهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس . ولما وصلوا اليه فرح بهم جداً وفاوضهم ، وأراد أن يحيي آثار دار الصناعة التي كانت بسلا على عهد الموحدين وبني مرين ، ثم فرض هؤلاء المعلمين على الثغور فتخرّج على أيديهم نجباء من أهل المغرب توارثوا هذه الصناعة منهم .

وعلى الجملة كان السلطان محمد كثير الاعتناء بالاساطيل ، اجتمع لديه من المراكب عشرون كباراً وثلاثون صغاراً ، وبلغ رؤساء البحر كلها ستين رئيساً جميعها بمراكبها وبحريتها ، وبلغ عسكر

البحرية في وقته الفاً من المشارقة وثلاثة آلاف من المغاربة . وهابه ملوك الإفرنج وطلبت مسالمته في البحر ، وقد سالمهم جميعاً إلا أمة المسكوف لمحاربتها العثمانيين .

وفي زمن السلطان سليمان رأى عدم قدرته على مجاراة الفرنج في البحار ، وإنّ إيجاد السفائن ببلاده لا تسبب له إلا المعرة والمشاكل بينه وبين دول اوروبا التي اتسعت أعمالها البحرية ، وانفرجت مسالك أساطيلها في المياه ، أمر فأبطلوا الجهاد في البحر ، ومنع رؤساءه من التلصص فيه ، وفرق بعض سفنه القرصانية على الأيالات المجاورة له مثل الجزائر وطرابلس ، ومابقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب ، وأعرض عن أمر البحر رأساً بعد أن كانت سفن المغرب الاقصى أكثر وأحسن من سفن صاحب الجزائر وتونس .

وفي زمن السلطان عبد الرحمن بن هشام لما طاف على ثغور المغرب ومراسيه سنة ١٢٤٣ هـ رأى من الموافق إحياء سنة الغزو في البحار التي كان أبطلها سليمان لان في ذلك تقوية لسلطنة مراكش ونهوضاً بذكرها بين الدول البحرية ، فأمر بانشاء الاساطيل وضمها إلى ما كان باقياً منها من آثار جده السلطان محمد ، ثم أمر لرؤساء البحر بثغري سلا ورباط أن يخرجوا في السفن الحربية ويطوفوا حوالي بلاد المغرب وما جاورها ، فلما خرجوا صادفوا سفناً تجارية تابعة لمملكة استوريا

(النمسا) فقبضوا عليها وأخذوها غنيمة بحجة أنه ليس لدى ربابينها ورقة التصريح حسب الشروط المقررة بينهم ... وفي أواخر القرن الثالث عشر هجري انقرضت قوة هـذه الدولة البحرية لظهور البواخر والبوارج البخارية .[1]

قوة محمد علي باشا البحرية :

بعد أن رسخت أقدام محمد علي باشا في الديار المصرية ، واستتب

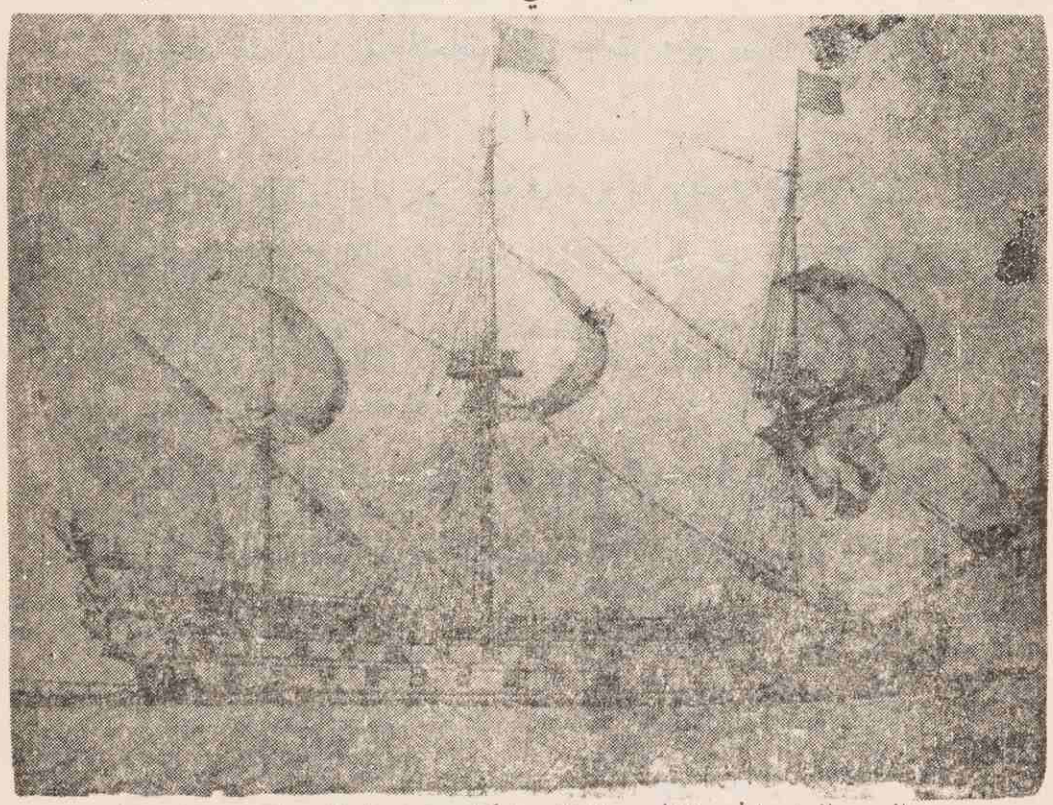

مثال من السفن الحربية المجهزة بالمدافع وقد كانت تسير في البحر الابيض المتوسط في القرن السابع الميلادي

(١) حقائق الاخبار عن دول البحار لاسماعيل سرهنك باشا

له الأمر فيها ، صرف اهتمامه الى تنظيم أحوال القطر من ادارية واقتصادية ، وثقافية ، وعمرانية ، وعسكرية فكان من أولى أعماله العسكرية أنه أصلح الحصون ، والقلاع المتخربة الموجودة بثغر الاسكندرية ، وبالسواحل المصرية ، وشيد أخرى غيرها حتى بلغ عددها ٢٦ حصناً ، وأقام فيها ٦٢٧ مدفعاً ، و ٦٥ هواناً ، ثم جدد بناء حصون أبي قير محافظة على السد ، وسلّحها بنحو ١٥٩ مدفعاً و ٨ هواناً الى غير ذلك من الاصلاحات التي جعلت مصر في عداد الدول القوية .

ولما قام الوهابيون في حركتهم في جزيرة العرب واستفحل أمرهم في الحجاز طلب السلطان محمود خان العثماني من أمير مصر محمد علي باشا أن يتولى حرب الوهابيين ، ولما لم يكن له سفن في البحر الأحمر يستطيع أن يقوم بحملته تلك أصدر أمره بانشاء ١٥ سفينة ، وأن تقطع أخشابها من اشجار التوت والنبق في الوجه القبلي والبحري . وكان أنشأ دار صناعة في ساحل بولاق سنة ١٢٢٤هـ ففصلت الاخشاب فيها وحملت على ظهور الابل الى دار الصناعة بالسويس ، فأنشأ اربع سفن جسيمة من نوع الإبريق (وهن سفن بساريتين وقلوع مربعة) وإحدى عشرة أخرى من نوع السكونة (وهي سفن بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع مخروطية) وقد أشرف على انشاء هذا الاسطول بنفسه .

وأراد محمد علي باشا أن يسهل نقل تجارة مصر الصادرة والواردة، فأمر بحفر ترعة الأشرفية التي سميت بالمحمودية فيما بعد، وأوصل مياهها الى ثغر الاسكندرية، فصارت المراكب تحمل المتاجر من مرفأ الاسكندرية الى رشيد ودمياط في أغلب أيام السنة، وكانت قديماً لاتخلو من الغرق وضياع البضائع .

ولما اثبت سيادته على بلاد سنار وكردفان جعل مدينة الخرطوم قاعدة لحكومة تلك البلاد، وبنى فيها دار صناعة واسعة، وانشئت فيها المراكب من خشب السنط، وكانت في مبدأ الأمر ضخمة كسفن تلك البلاد، واصبحت الخرطوم محطة لعموم تجارة السودان . واستخدم في دار صناعة الخرطوم معاتيقه وجعل منهم ملاحين في السفن الأميرية التي أخذ عددها يزداد يوماً فيوماً حتى نسبت اليه بحارة الخرطوم .

وعزم محمد علي باشا على انشاء اسطول حربي في البحر الأبيض المتوسط، فتعهد له بعض تجار الفرنج أن يأتي له بالسفن من البلاد الاوروبية، وكان السلطان محمود اهداه سفينتين حربيتين فشرط على ذلك المتعهد أن تكون السفن من نوع : الفرقاطه، والقرويت، والابريق وأن تكون على شكل السفينتين اللتين أهديتا إليه من السلطان . فما لبثت السفن أن وردت إليه وقد صنعت بتريسته،

ومرسيليا ، وليقورن ، وجنوه ، فانتخب لها الرؤساء من سفن التجار الأتراك ، والاسكندرانيين ، وجعل نوتيتها من المتطوعة ، وأدخل بينهم ضباطاً من الفرنسيين والطليان ، لتعليم البحارة وتدريبهم .

وأسس على الشاطئ الشرقي من الاسكندرية معامل للحدادة والنجارة ، وما تحتاج اليه السفن الحربية ، وكان رئيس المهندسين لهذه الاعمال يدعى شاكر الاسكندري ، ومعه رجل هو الحاج عمر من مشاهير المعلمين ، واتفق ان حضر الى مصر في ذلك الوقت سنة ١٢٣٦هـ رجل من رؤساء المراكب الحربية الفرنسية يدعى بيسون Besson عرض خدمته على محمد علي باشا لما وجد من اهتمامه بانشاء الاساطيل فجعله مراقباً للسفن التي كانت تنشأ في البلاد الاوربية لمصر ، وأوجد ادارة خاصة للاساطيل المصرية .

وابتاع عزيز مصر عدة سفن شراعية للأهراء والذخائر ، جعلها في بدء الأمر لجلب الأخشاب اللازمة لدار صناعته الجديدة من سواحل بلاد الاناضول .

وفي سنة ١٨٣١م اسس مدرسة للبحرية ، وأدخل بها مماليكه وأبناء خدامه ، وجلب لها معلمين فرنسيين هما (انطون بنانسي Antoine Banansy وكاملو موسكاني Camilla moskani ، فكان لهما اليد البيضاء في تعليم كثير من التلامذة الذين اشتهروا فيما بعد بالبسالة والاقدام

الاسطول المصري في حرب اليونان :

أرسل السلطان محمود العثماني أمراً الى محمد علي باشا، يطلب مساعدته في تأديب اليونان الثائرين، وتخليص الاسطول العثماني الذي أضحى محصوراً بمياه البانيا، ولما ورد أمر السلطان كتب محمد علي باشا الى صهره محرم بك محافظ الاسكندرية بتجهيز الاسطول، فأعد محرم بك ١٤ سفينة حربية برؤسائها وجنودها، وأقلع بهـا، ولم يبق في ثغر الاسكندرية غير ثمان سفائن حربية للمحافظة بها على السواحل المصرية، وأخذ العزيز يهتم بتجهيز أسطول آخر من السفن التي تأتيه تباعاً من اوروبا؛ ولما وصل محرم بك بالأسطول المصري الى مياه كريد، تلاقى في الجهة الشمالية منها بسبع عشرة سفينة تجارية يونانية، تهاجم سفينة تجارية عثمانية، فهجم على السفن اليونانية واستولى على ثلاث منها، وولى الباقي الادبار، وتخلصت تلك السفينة العثمانية، ثم تقدم الى بحر الارخبيل؛ وبعد شهر أرسل محمد علي باشا اسطولاً آخر مؤلفاً من ١٨ سفينه تحت قيادة (طبوز اوغلي قبوجي باشي محمد اغا) للالتحاق بالأسطول العثماني الذي كان تحت قيادة البطرونه مختار بك، وأمره أن ينضم الى اسطول محرم بك لتخليص الاسطول العثماني المحصور والذي يقوده نصوح زاده علي بك . وقد تم ذلك وفك الحصار عن الاسطول المذكور، واشتركت الاساطيل المصرية والعثمانية بمطاردة مراكب الاشقياء من

اليونانيين فأحرقت منها كثيراً ، ثم عادت أساطيل مصر الى الاسكندرية لاصلاح ما تلف منها سنة ١٢٣٨ هـ .

وفي ٣ ربيع الاول من سنة ١٢٣٩ هـ ١٨٢٤ م أقلع الاسطول العثماني ثم الاسطول المصري تحت قيادة محرم بك ، وكان مجموع السفن المذكورة ٩٩ ، منها ٦٣ بين حربية ونقلية و٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر ، وكان عدد الجيش المصري ١٧٠٠ جندي من المشاة و ٧٠٠ من الفرسان وأربع بطاريات ، ومدافع أخرى للقلاع والجبال ، وكان هذا الجيش تحت قيادة ولده البطل الشهير ابراهيم باشا ، فوصلت هذه الاساطيل إلى موره في رجب سنة ١٢٤٠ هـ واحتلت جزيرة موره .

وفي ٢٧ صفر من سنة ١٢٤٣ هـ اجتمعت اساطيل الدول المتحالفة وهي : انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ودخلت خليج ناوارين لحماية اليونانيين ومساعدتهم على نيل استقلالهم ، فأطلقت نيران مدافعها على اساطيل الدولة العثمانية والمصرية فجأة دون سابق انذار فأتلفتها حرقاً وتدميراً ، فاضطر محمد علي باشا أن يأمر ولده بالانسحاب من بلاد اليونان .

الاسطول المصري بعد وقعة ناوارين :

بعد وقعة ناوارين أخذ محمد علي باشا يهتم باصلاح الاسطول المصري ، فشرع أولاً بتوسيع ميناء الاسكندرية ليساعد على رسو اكبر السفن الحربية عند رصيف الميناء ، وشيد دار صناعة وما تحتاجه من

المعامل والمصانع لانشاء وترميم السفن ، وذلك بمساعدة المهندس الفرنسي سيريزي Cerisy ، وجلب كثيراً من الشبان المصريين من جميع المديريات لتعليمهم صناعة عمل السفن وما يلزم لها من الآلات ، وبذلك عوّضت مصر أساطيلها في وقعة (ناورين) وزادت قوتها البحرية أضعاف ما كان لها ، حتى ان صناعة السفن بالاسكندرية أخذت تضارع في الجودة والمتانة سفن أعظم البلاد الاوروبية ، وحصل محمد علي باشا على أمر من السلطان يخوله فيه بقطع الأخشاب اللازمة من غابات الاناضول .

وكان المشتغلون بانشاء المراكب واصلاحها يبلغ عددهم ٨٠٠٠ نسمة ، فاستغنت مصر عن ابتياع السفن من الخارج ، وافتتح عزيز مصر مدرسة لتعليم نحو اثني عشر الفاً من الجنود الاعمال البحرية ، ولما تدربوا وزعهم على السفن الحربية ، فانتظمت البحرية المصرية وصارت تحاكي نظامات البحرية بالاساطيل الاوروبية .[1]

(١) باختصار عن الجزء الثاني من كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار لاسماعيل سرهنك باشا .

فهرس الكتاب

صفحة		صفحة	
٦	المقدمة	٢٥	خشب السفن
	الأسطول العربي:	٢٨	بناء السفن وانواعها
٨	الملاحة عند العرب قبل الاسلام	٤٨	الأسطول
١٠	الملاحة والاسلام	٥٠	المشهور من أدوات السفن وأجزائها
١١	عمر بن الخطاب يحذر من ركوب البحر	٥٦	سفن البحر الأبيض المتوسط
١٣	الخليفة عثمان يأذن بركوب البحر	٥٨	سفن البحر الاحمر
١٥	الاعراب يحذرون من ركوب البحر	٦١	سفن المحيط الهندي
١٦	تعليل ابن خلدون	٦٦	أدوات الحرب في الأسطول
	دور الصناعة:	٧٢	مراسي العرب في البحار
١٩	صناعة الروضه	٨١	المناور
٢٠	صناعة مصر	٨٤	ديوان الأسطول
٢٠	صناعة المقس	٩٠	أهراء الاسطول
٢٢	صناعة عكة وصور	٩٢	التجارة البحرية
٢٢	دور الصناعة في عهد المرابطين والموحدين	٩٩	المكوس
٢٢	صناعة سلا	١٠٣	قوانين الملاحة والحروب البحرية
٢٣	جزيرة الخضراء		
٢٣	صناعة دانيه		
٢٣	شلطيش		
٢٣	لقنت		
٢٤	مالقه		
٢٤	بيروت		

تابع فهرس الكتاب

١٠٤ حركات الأسطول

لمحة تاريخية :

١١٩ البحرية الأموية

١٢٢ بحرية بني العباس وبني الأغلب

١٢٦ بحرية بني العباس والعبيديين

١٣٠ بحرية الأمويين في الاندلس

١٣٢ بحرية المرابطين والموحدين

١٣٤ دول المغرب الأقصى

١٣٦ بحرية بني أيوب

١٣٧ بحرية المماليك

١٣٨ بحرية الأشراف السجلماسيين

١٤١ قوة محمد علي باشا البحرية

١٤٥ الاسطول المصري في حرب اليونان

١٤٦ الاسطول المصري بعد وقعة ناوارين